روايات مصرية

52

سافاري

د. أحمد خالد توفيق

أيام الكونغو

روايات مصرية

سافارى

مغامرات طبيب شاب

يجاهد لكى يظل حيًا

ولكى يظل طبيبًا

•

مصنف مصرى مائة فى المائة لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أية قصص أوروبية .

•

إشراف

الأستاذ / حمدي مصطفى

•

العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ (المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ
ت : 26823792 ـ 26825800 ـ 24677371 ، فاكس : 24677188) (منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ
الرئيسى للفجالة ت : 25882046 ـ 25882047 ـ 25908455 ـ 25908210 ـ فرع الفجالة ت : 25928202 ـ 25932403
فاكس : 25890401) ـ (4 شارع الإسحاقى ـ منشية البكرى ـ روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ت : 22586197 ـ
24550499 : فاكس : 232/22596650) ـ (الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ ت : 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصـرية

سافارى



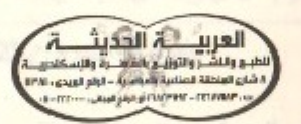
•

مفامرات طبيب شاب
يجاهد لكى يظل حيًا
ولكـى يظـل طبيبًـا

أيام الكونغو

بقلم : د . أحمد خالد توفيق

الغلاف بريشة : أ . أيمن القاضى



مقدمــــــة

اسمى (علاء عبد العظيم) ... طبيب مصرى شاب يجاهد* - كما يقول الغلاف - كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صَفَرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب

مصرى عادى جدًا ، فقد وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك - كما قلنا - من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ..! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألقَ هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء .....

القصة تبدأ من نهايتها

شهادة آلان فرانسنل
(عامل الاتصالات)

هل لي في لفافة تبغ لو سمحت ؟ معذرة فأنا مرتبك .. يدي ترتجف .. لكن لا ... سأطفئها حتى لا أحرق ثيابي .. أعرف أنني أعطيك انطباعًا غاية في السلبية عن حالتي العقلية ..

ماذا كنت أقول ؟

عندما تسمع صوت السلاح الناري ، فمن العسير أن تصدق أنه يحدث كل هذا الضجيج . لا شك أن السينما تقدم لك صوتًا زائفًا لا يمت للحقيقة مهما بلغت كفاءة سماعات الدولبي .

الملاحظة الأخرى هي أن الأمر كله لا يبدو حقيقيًا ... لا تصدق أن هذه الضوضاء يمكن أن تجرد إنسانًا من حياته .

لكن كل هذا حقيقي .. هذا ليس كابوسًا ..

أنا موظف اتصالات بالطبع كما تعرف .. أقضي معظم يومي مع زميلي رانكلين وسماعة اللاسلكي على أذنينا . مع تلك الرائحة الباردة المميزة لأجهزة الاتصالات ..

شعرت فى البداية بهرج ومرج فى ردهة وحدة سافارى . وحدة سافارى 7 من الوحدات حسنة التنظيم ، وهناك إدارة أمنية ممتازة . يصعب أن يختل هذا النظام المحكم ، لهذا شعرت بشىء غير معتاد .

خرجت من غرفة الاتصالات لأرى ما يشبه قطعان أفيال تركض .. لو وقف بطل العالم فى المصارعة فى الطريق لداسوه بأقدامهم . وكان من المستحيل أن تسأل أى واحد منهم عن سبب ركضه .

فى النهاية لمحت ممرضة اسمها (ران) - جارة لى - تركض وقد انتثر شعرها الأسود على ظهرها وفقدت الكاب الخاص بالتمريض ، فهرعت نحوها أسألها .

قالت وهى على وشك الإغماء :

- « ثوار حالاً ... دكتور أناتول قد جن ... »

ثم ركضت مبتعدة .. سمعت صوت الطلقات .. لكنى بالطبع لا أملك خبرة بهذه الأمور ، ولا أملك رد الفعل الذى يجعلك تتوارى عند سماع الطلقات .. لم أسمع صوت طلقات منذ كنت فى الجيش الشعبى الزائيرى .

لهذا وقفت فى بلاهة أراقب ما يحدث ..

كان المشهد مروعًا ..

دكتور أناتول المثقف الذى هو مفخرة لقبيلته ومفخرة لكينشاسا كلها كان يمشى فى الممر بتؤدة ، وهو يطلق السباب بلغة اللينجالا .. ومن الملفت أنها اللغة الرسمية للجيش هنا .

كان يمشى فى تؤدة وثقة كأنه يملك الوقت كله . أما ما أثار هلعى فهو أنه يحمل بندقية آلية .. بندقية آلية حقيقية محشوة بالرصاص ..

رأيته يستدير نصف دورة . كان هناك أحد رجال الأمن يتحسس مسدسه فى الخلفية وهو لم يقرر ما يفعله بعد . أطلق أناتول دفعة قصيرة من الرصاص فطار رجل الأمن ليضرب الجدار ويسقط .. ومن حوله بركة دم ..

ثم واصل الطبيب الأسود مسيرته .. ومن حين لآخر يخرج مسدسًا من خاصرته ويطلق رصاصة على السقف ، كأنه ادخر رصاص المسدس للتخويف لا أكثر . فيما بعد عرفت أنه المسدس الذى أطلق به رصاصة بين حاجبى دوسكانيش الضابط القوى .. كان هذا منذ نصف ساعة فقط ..

أطار المشهد صوابى ، فهرعت إلى حجرة الاتصال وتواريت تحت المكتب ..

هنا سمعت من يركل الباب بعنف .. وأدركت أنه دخل الغرفة ..

أطلق الكثير من السباب .. وكان زميلى راتكلين هناك لم يفهم بعد ما حدث .. كان عند النافذة يبحث عن سبب الضوضاء .. هنا أطلق الطبيب دفعة من الرصاص ليهشم كل أجهزة السنترال وشاشات الكمبيوتر ، وتصاعدت سحابة من الدخان فى المكان .. اللحظة التالية رأيت راتكلين يسقط أرضًا .. لم يبدُ كأنه مات .. بدا لى للحظة كأنه تعثر ..

انتهى الأمر ..

رأيت قدمي د. أناتول فى سروالهما الجينز وأطراف المعطف . كان يقف هناك عند المنضدة . مستحيل أن أتوارى . مع بدانتى ومؤخرتى العملاقة ، لابد أن رأسى فقط هو الذى كان مختبئًا ..

ربِّ اجعل نهايتى سريعة غير أليمة ، ولتتسنى زوجتى وأطفالى بسرعة ..

لا تدعهم يتعذبون يا رب .

هنا سمعت من يتكلم بالفرنسية .. كان متوترًا راجف الصوت لكنه يتكلم فى إصرار ..

كان يقول بلكنة فرنسية غريبة نوعًا :

ـ « د. أناتول .. أرجوك أن تلقى بهذا السلاح ! »

كان الرجل قد بلغ حالة شديدة من الجنون .. لكن بدا أن الصوت منحه بعض الهدوء . قال فى شىء من التردد :

ـ « ابتعد عنى يا دكتور عظيم .. لا أحب أن أرى جثتك »

فهمت . الصوت الثانى هو للطبيب المصرى ذى اللحية القصيرة الذى جاءنا من الكاميرون .. اسمه الأول علاء على ما أنكر ..

ماذا يفعله ؟ ليس على هذا القدر من الشجاعة ، وعلى كل حال ليس من الشجاعة أن تواجه رجلًا يحمل بندقية آلية .. هناك خط فاصل بقوة بين الشجاعة والبلاهة .. دعك من أن أناتول قد أبحر فى نهر بلا عودة .. لن يعود من شلالات الجنون أبدًا . ليس أسهل من ضغطة على الزناد ...

لكن صوت الطبيب المصرى عاد يقول وهو يرتجف :

ـ « أنت لن تقتلنى .. أعرف هذا .. لكنى كذلك أكره أن أرى جثتك الممزقة »

صرخ أناتول :

ـ « أنا قد تجاوزت فرصة الخلاص .. انتهى أمرى .. لابد أننى قتلت عشرة على الأقل بعد هذا الكلب .. »

عاد علاء يكرر فى إلحاح :

ـ « سوف تحاكم على الأقل .. هلم ناولنى هذا السلاح .. إن لم تفعل فلسوف يفرغون بنادقهم فيك لمدة ربع ساعة .. لن يبقى منك ما يكفى لملء قبضة »

ـ « وهذا هو الحل الوحيد ! »

ثم سمعت ما يشبه الالتحام الجسدى . لا أقدر على الخروج من مكمنى لأرى .. هناك صراع لا شك فيه .. ثم سمعت ضربة قوية بشىء خشبى .. أعتقد أنه دبشك بندقية ..

عاد صوت الطلقات يتردد لكنى فهمت من يطلق الرصاص خارج الغرفة الآن ..

فى حذر أخرجت نفسى .. دماء رانكلين فى كل مكان .. لقد مزقه الرصاص تمزيقًا .. مقاعد مقلوبة .. آثار أقدام دامية ، ثم رأيت جوار الباب ذلك الطبيب المصرى راقدًا على وجهه بلا حراك ..

متى حدث هذا ؟

هرعت نحوه وركعت جواره فسرنى أنه يتألم بشدة .. الدم ينزف من رأسه . قصة بليغة مختصرة .. لقد التحم الرجلان وحاول علاء أن ينزع السلاح من يد خصمه ، لكن فى تلك المواقف تسقط أرضًا على ركبتيك لتصير مؤخرة رأسك متاحة لمن يريد أن يهوى بدبشك البندقية .. هذا أفضل من رصاصة فى الرأس طبعًا . أحيانًا يكون الألم الشديد هو الدلالة الوحيدة على الحياة ..

سؤال مهم : لماذا لم يرغب أناتول فى قتل المصرى ؟

★ ★ ★

ما حدث بعد هذا هو أننى سمعت رجال القوات الخاصة . يبدو أنهم طلبوا الجيش . سمعت تبادل طلقات ..

لسبب جنونى ما خرجت من مكمنى وتواريت وراء رخام الكاونتر فى الردهة ، فرأيت فى نهاية الممر أناتول يحمل بندقيته ويطلق فى السقف فى كل الاتجاهات وهو يصرخ :

ـ « دوسكاليييييش !! »

الملاط يتساقط والكشافات تنفجر . وفى النهاية صدر صوت الكليك كلاك .. لقد انتهت الحياة من ذلك السلاح اللعين ، فراح يضغط وصوت الزنبرك يتردد ... ثم أنه ألقى بالبندقية على الأرض وأخرج المسدس .

كان هذا المزاح كافيًا بالنسبة لرجال القوات الخاصة . وفى لحظات تحول الممر إلى غابة كثيفة من الدخان والموت ورائحة البارود .. لقد أطلقوا عليه بغزارة وجشع وغل .. انفلات أعصاب تام ..

أخيرًا انقشع الدخان وأمكننى أن أرى جثة أناتول الممزقة .. يبدو أنها تحولت لكومة من اللحم المفروم فعلًا ، والدخان يتصاعد من كل ثقوب الرصاص .. لقد سقط جوار عربة صغيرة فى الممر مما تُحمل عليه المطهرات وأدوات غيار الجروح . تمسكت يده بها فقلبها .. تناثرت السوائل من حوله فبدا كأنه ينزف مطهرات وليس دمًا ..

كنت أرتجف من الرعب ، وأنا أرى رجال القوات الخاصة السود يركضون فى الممر وهم فى حالة توتر شديدة .. لقد تكوم ميتًا لكنهم ما زالوا فى وضع تحفز ..

من الغرفة خلفى سمعت صوت أنين ..

استدرت فرأيت علاء الطبيب المصرى على ركبتيه .. كان يتحسس مؤخرة رأسه بيد غرقت فى الدماء ، وأدركت أنه يردد كلامًا ما بالعربية ..

أدركت كذلك أنه يبكى بحرقة .. أعتقد أنه فهم ما حدث ..

لا أعرف لماذا حدث ما حدث ، لكنى أعتقد أن هذه أفضل النهايات الممكنة . بعد كل من قتلهم أناتول كان لابد أن يموت . موته الآن أفضل من موته بعد المحاكمة الطويلة ..

أعتقد أن الأجانب يطلقون اسمًا على الحوادث المماثلة .. عندما يقرر موظف أن يطلق الرصاص ليقتل كل زملائه ..

آموك Amok .. وهى لفظة من الملايو تشير إلى هياج الفيلة الذى يكتسح كل شىء كالإعصار . هم كذلك يطلقون على من يفعل هذا أنه went postal ... أى أنه جُنّ فراح يتصرف كموظفى مكاتب البريد . لسبب ما يجن موظفو البريد فى أمريكا ويفرغون رصاص بندقياتهم فى زملائهم فى العمل .

لكن أناتول لم يكن موظف بريد .. كان طبيبًا بارعًا هادئ الجنان ..
هذا ما استطيع قوله يا سيدى ..

اعتقد أن هذا لو كان فيلمًا سينمائيًا لكان المشهد جديرًا بكتابة
الخاتمة

(النهاية)

END

FIN

شهادة كيشا ليونيل
(ممرضة فى وحدة سافارى)

أطفالى الخمسة فى البيت فى كينشاسا تعنى بهم أمى العجوز .

أعتقد أن علىَّ أن أنصرف يا سيدى ، فهى لن تستطيع مع سنها المتقدمة أن تعنى بهم جيدًا . إن زوجى سيعود فى الثامنة مساء . يجب أن أرحل .. لقد انتهت ورديتى فى الثالثة عصرًا وكان يجب أن أنصرف ..

اسمى كيشا .. أنا ممرضة فى الثامنة والعشرين من العمر وأقيم فى أحد أحياء كينشاسا . حى فقير هو ولا أنكر ذلك .. نحن فقراء يا سيدى .. وبالفعل أنا بدأت أنجب كالأرانب من سن الثامنة عشرة ..

أنا كنت هناك ..

أنت تعرف أن دكتور أناتول طبيب حميات . هو واحد من أكثرهم كفاءة وبراعة ، كما أنه يتمتع بضمير يقظ فعلاً ، لكنك تعرف أنه انقطع عن المجىء للعمل بسبب الأحداث الأخيرة .

كنت واقفة مع مارى مشرفة التمريض أحدثها عن زوجي وعن مشكلة الأطفال المزمنة ، عندما رأيت الدكتور أناتول قادمًا .. دخل من الباب الجانبي ، وأقسم أنه نظر لى فى وجهى لكنه لم يرنى . كان فى حالة ذهول تام .

قال شيئًا ما هو أقرب للغمغمة .. تقريبًا لم يقل شيئًا ..

ثم إنه بصق على الأرض وغادر الغرفة . تبادلت نظرة مع ماري ، وشعرت بغصة فى حلقى . هذا نذير شؤم فيما أرى لأن د. أناتول يتمالك روعه ، وليس من الطراز الذى يبصق عندما يغضب .

اتجهت للنافذة المفتوحة التي تطل على حديقة وحدة سافاري لأرى ما يفعله .

كان قد خرج من البناية ومشى بضع خطوات ... هناك كان رجل الأمن فرانتز يقف مع جندي من الجيش . إن الجنود في كل مكان من كينشاسا هذه الأيام ..

كانا يتكلمان ويدخنان .. كل الرجال يدخنون معًا كأنهم ندماء يحتسون الخمر .. لم يلاحظا أى شىء مما يدور حولهما ، ورجل

الأمن يستند إلى جذع شجرة بينما الجندى قد أراح بندقيته الآلية إلى الجدار .

رأيت د. أناتول يمر جوارهما . عرفت على الفور ما ينوى عمله كأننى رأيت ذات الفيلم من قبل . إيماءاته كلها قالت لى إنه سيفعل هذا برغم أن هذا مستحيل .

لقد انحنى على الأرض وبسرعة البرق التقط البندقية الآلية ... القوة الرهيبة فى كتلة الفولاذ والخشب هذه صارت بين يديه ..

استدار الجندى يحاول استرداد سلاحه ، لكن د. أناتول تراجع للخلف وهو يحاول فك طلاسم هذا السلاح . لابد أنه كان يعتقد أن الضغط على الزناد يحل المشكلة .. كليك كليك .. لم ينطلق شىء ..

هرع الجندى ليلقى بنفسه على أناتول ، لكن هذا الأخير قرر أنه يمكن استخدام البندقية بطريقة أخرى .. أمسكها من الفوهة وهوى بها على صدر الجندى كأنه يبغى تهشيم الضلوع .

بالفعل سمعت صوت الارتطام وتهاوى الرجل على الأرض برغم ضخامة جسده . أخرج فرانتس سلاحه وصوبه على د. أناتول .. أعتقد أنه كان يقول له أشياء مثل :

ـ « اترك السلاح يا دكتور .. لا أريد أن أطلق الرصاص »

لكن د. أناتول كان يجرى بعض التجارب السريعة على البندقية ، يشد هذا الجزء أو ذاك .. وأعتقد أنه نجح لأنه جرّب الزناد فانطلق وابل من الرصاص على رجل الأمن .. وأعتقد أن الدفعة كانت قوية لدرجة أنها ألقت بدكتور أناتول إلى الخلف ليسقط أرضًا . لاحظ أنه لا يملك خبرة عسكرية ، ولعله أول سلاح يمسكه فى حياته . أما الشخص الآخر الذى سقط للخلف إلى الأبد فهو فرانتس .

أطلقت صرخة وشعرت بأننى سأفقد وعيى ..

سألتنى مارى عما هنالك فقلت من موضعى بالنافذة :

ـ « لقد قتله ! »

ـ « قتل من ؟ »

ثم قررت أن تلحق بى لترى ما يحدث ..

كان المشهد ملحميًا .. د. أناتول قد نهض وأعتقد أنه تعلم شيئًا أو شيئين عن قوة ارتداد هذا السلاح . بدا أكثر سيطرة وهو يتقدم عبر الحديقة . والتأثير كان دراميًا .. لقد راح الناس يتدافعون ليفسحوا له الطرق وهم يصرخون ، وخبأت الأمهات أطفالهم فى صدورهن ..

لكنه لم يبد راغبًا فى قتل واحد من المرضى ..

رأيته يتقدم نحو الجناح البعيد .. وسمعت صرخات عندما اقتحم الباب ..

هذه المرة دوت طلقة قصيرة . وتعالى الصراخ أكثر ..

لقد بدأ الجنون أخيرًا ...

صاحت مارى فى هستيريا :

- « هذا الجناح يدور ليصل لنا .. سوف يبلغنا ويقتلنا »

بدا لى هذا الاحتمال سخيفًا .. أولاً هو سوف يستهلك طلقاته .. ثانيًا لابد أن أحدهم سيقتله قبل أن يعبر كل هذه المسافة .. ثالثًا بوسعنا أن نتوارى تحت المكاتب أو الأسرّة أو ندخل غرفة الأشعة ونغلقها علينا . كينشاسا تعج بالجنود وسوف يملئون المكان حالًا ..

الطلقات تنهمر وتتعالى ..

بصرف النظر عن نجاتنا أو هلاكنا ، فالأمر بشكل ضغطًا عصبيًا مريعًا .. فكرة أن هناك من ينفجر منهم الدم ويموتون الآن فكرة لا تطاق ..

سألتنى مارى فى رعب :

ـ « ماذا دهاه ؟ هل جُنّ ؟ »

ياله من سؤال !.. كأن المرء يمكن أن يسرق بندقية آلية ويقتل بها زملاءه لمجرد أن أعصابه مرهقة . بالطبع قد جُنّ ... لربما هو مدمن مخدرات كذلك ..

الطلقات كانت تنهمر بلا توقف ...

وكأنها انفجارات فى جدار هدوئنا النفسى ..

ورحت أدعو الله أن ينتهى هذا الكابوس سريعًا .. تنتهى حياته أو تنتهى الطلقات ..

شهادة كريست جولمى
(صاحب متجر وجار د. أناتول)

أنا كنت هناك يا سيدى فى شوارع ليوبولدفيل عام 1961 ... رأيت كل شىء .

اسمى كريست جولمى .. حاليًا أعمل فى بيع الفاكهة ، ويمكنك أن ترى متجرى هناك .. لست متأكدًا من سنى بالضبط . لقد تجاوزت الخمسين ، لكن يمكنك طلبًا للدقة أن تجرى أنت الحسابات ...

رأيت السيارة العسكرية تجوب شوارع ليوبولدفيل .. عليها يقف الجنود المدججون بالسلاح . فى الخلفية يجلس ذلك الشاب النحيل المثقف مرهقًا هدّه التعذيب والجوع ، وقد أحاط بعنقه حبل غليظ .. الرجل الذى حلم بمستقبل مختلف .. حلم بكونغو تكون ثرواته ملك أهله وليست مصدرًا لثراء بلجيكا .. حلم طويلًا بالاستقلال عن بلجيكا . المحتل الغاشم القاسى .

أنا كنت هناك ..

كنت طفلاً فى العاشرة أركض فى الطرقات منبهرًا بالمشهد الدامى الذى وجدته – كعهد الأطفال – مسليًا .

لقد كان (باتريس لومومبا) فى حال سيئة وقد بدت عليه علامات الوهن وسوء التغذية ، لأن موبوتو أصدر تعليماته بذلك على سبيل النكاية . لم يكن موبوتو هو رئيس البلاد بعد ، بل كان تشومبى هو الرئيس ، لكن موبوتو كان نافذ الكلمة .

كان لومومبا قد أمضى أيامًا فى السجن ، ثم طلب السفير البلجيكى نقله إلى كاتانجا . كاتانجا كنز اليورانيوم الأفريقى الذى صنعت منه قنابل أمريكا الذرية ..

كاتانجا هى مركز قوات الجيش التى سيطرت على البلاد وأطاحت بلومومبا .

فى المساء عرفنا أنهم اقتادوه إلى بقعة منعزلة خارج السجن حيث وقفت فرقة الإعدام متأهبة ، وسرعان ما سقط الرجل النبيل وسط دمائه .

تناثرت الاتهامات بعدها .. لم يكن موبوتو هو وحده المسئول .. المخابرات المركزية الأمريكية لعبت دورًا مهمًا ، وكذلك الحكومة البلجيكية .. وعرفنا فيما بعد أن تشومبى حضر الإعدام بنفسه .

لمنع الناس من هواية صنع الأبطال ، تم تذويب الجثث كلها فى

حمض الكبريتيك المركز . لا أحد يريد مقابر شهداء تذكارية تصنع ثورة ..

ثار العالم لخبر مقتل لومومبا وخرجت مظاهرات فى معظم البلدان الحرة . وفى عدة بلدان هوجمت السفارات البلجيكية .

أنا كنت هناك أشاهد الموكب فى شوارع ليوبولدفيل ..

فيما بعد قيل لى إن لومومبا كان شيوعيًا .. هذا غير صحيح . فقط كان الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت هو الملجأ الوحيد للفارين من الولايات المتحدة ورغباتها الاستعمارية .. كان من شبه المستحيل أن تكون محايدًا ، لكن هذا ما نجحت فيه مصر والهند إلى حد كبير . ومن الجدير بالذكر أن أرملة لومومبا عاشت فى مصر بعد ذلك بدعوة من جمال عبد الناصر ، وتلقت معاشًا ثابتًا هى وأسرتها .

الحقيقة أن لومومبا بعد الاستقلال قوبل بثورة هائلة فى صفوف الجيش ، نظمتها السلطات البلجيكية .. وقد استعان بالولايات المتحدة والأمم المتحدة طالبًا العون . لكن هذا أدى إلى تسارع العنف ضده .. وانتهى الأمر باعتقاله ووضعه فى السجن ..

لم يكن هناك مزاح فى الأمر ..

الكونغو بلد غنى جدًا ، وهو مصدر هائل لليورانيوم ما كانت أمريكا لتسمح بوصول الاتحاد السوفيتى له .

كان على الكونغو أن تتحمل رحيل لومومبا وحكم تشومبى الذى لم يطل ، وسرعان ما جاء موبوتو ليحكم البلاد حتى العام 1997 ...

طيلة تلك السنوات لم يكن اسم البلاد (كونغو) . موبوتو اختار لها اسم زائير .

بعد موبوتو استعادت البلاد اسم الكونغو على يد الرئيس كابيلا ، لكن ظلت لفظة (الديمقراطية) فى الاسم ، وهى علامة سيئة .. لأن كل البلدان التى تحمل لفظة (ديمقراطية) فى الاسم هى – كقاعدة – بلدان دكتاتورية .

كنت هناك ..

كطفل كنت أتواثب فرحًا بالمشهد المثير ، لكن أمى التى كانت ذاهبة للسوق ضربتنى بين لوحى كتفى لأصمت . وقالت هامسة :

ـ « لن يتركوا الكونغو تفلت منهم أبدًا ... »

ولهذا كنا نقرأ فى كتب المدرسة عبارة (الكونغو البلجيكية) ونرى على جدران صفوف المدارس صورة ليوبولد ملك بلجيكا . جاء الاستقلال ، لكنه استقلال شبيه بكل الدول الأفريقية

الأخرى .. التخلص من المستعمر الغربي الذي يحمل بندقية ، ليأتي مستعمر محلي من أهل البلد ، ويتعاون مع الاستعمار الغربي الذي يعود في صورة احتكارات وشركات واستثمارات ..

★ ★ ★

عام 1966 لم تعد ليوبولدفيل بنفس الاسم .. صار اسمها (كينشاسا) لكن هذا لم يدل على استقلال أفضل . لقد رحلت بلجيكا لتعود من الباب الخلفي ، وما زال هذا هو الكونغو البلجيكي ..

أنا رأيت اعتقال جلوار عام 1969 .. المحامي الشاب الذي يسكن جوارنا مع زوجته . رأيت السيارة يترجل منها الجنود .. لم ينتظروا حتى يرد على الباب أو يفتحه ، بل هشموه بأحذيتهم الثقيلة ، وسرعان ما كانوا يجرونه جرًا بينما زوجته تصرخ والطفل (أناتول) يتمسك بقدمه باكيًا ..

في نفس اللحظة تقريبًا ركل جندي الطفل ليطير بعيدًا ، وصفع أحدهم الأم لتسكت ، وهوى ثالث بدبشك البندقية على مؤخرة رأس جلوار ..

وسرعان ما تم وضع جلوار في السيارة .. تلقى لكمة أخرى في أنفه فأغرق الدم صدره .. ذكّرني منظره على الفور بمنظر لومومبا الذي رأيته منذ ثماني سنوات ..

سمعنا بين الناس المتزاحمين عبارة :

ـ « شيوعى .. شيوعى »

لم يكن جلوار شيوعيًا .. فى ذلك الوقت كان كل من يقف فى وجه نظام موبوتو يتهم بالشيوعية ، وأنا أعرف أنه كان مؤمنًا بمبادئ لومومبا .. عرفنا يقينًا أننا لن نراه ثانية .. هناك أنفاق تحت الأرض يغيب فيها السجناء فلا يرون الشمس ولا يعودون أبدًا أو يراهم أحد. من يمت منهم يُذوَّب فى الحمض أو تُلقى جثته للتماسيح . نحن فى الكونغو لا تنقصنا الوحوش سواء كانت آدمية أو غير آدمية .

كان المشهد مرعبًا ، ولا شك أنه حفر للأبد فى ذهن د. أناتول الذى كان وقتها فى الثالثة من عمره . قلت لنفسى إن هذا الصبى لن يكون سويًا .. ما من صبى يرى أباه فى وضع كهذا وينسى ..

كان علىّ أن أنتظر كل هذه الأعوام حتى أبرهن على أننى محق ..

لا أعنى بهذا أن هذا المشهد جعله ينتقم بإطلاق الرصاص على زملاء العمل بعد نيف و40 عامًا . لكنى أعتقد أنه أعد فى روحه التربة المناسبة للعنف . لم تبقَ سوى البذرة .....

من وضع البذرة ؟ بصراحة لا أعرف يقينًا ...

شهادة جوسلين
(بائعة وجارة د. أناتول)

اسمحوا لى بالجلوس .. كانت الصدمة قاسية حقًا، وما زلت أشعر بأن ساقىَّ واهنتان .. أنا لم أحضر لحظة إطلاق الرصاص ، لكن بوسعى أن أحكى لك الكثير عن د. أناتول .. لقد عاصرته لفترة طويلة جدًا ، بل وأجرؤ على القول إننى أحببته أغلب حياتى .

أحب هاتين العينين الصادقتين الحساستين والوجه النبيل .. هذه البشرة السوداء التى لها لون الأرض .

اسمى جوسلين .. أعمل بائعة ثياب فى متجر . لا أكسب الكثير من المال كما هو بادٍ علىَّ لكنى كنت قادرة على الحياة . لم أتزوج قط . فاتنى قطار الزواج على العموم .

كنت قد حسبت أن د. أناتول قد تعافى من الانهيار العصبى الذى أصابه ..

كان قد قضى بضعة أيام فى مستشفى مونكول فى كينشاسا .. هذا مستشفى ضمن العشرين مستشفى التى بناها موبوتو فى كينشاسا . لماذا لم يعالج فى وحدة سافارى التى يعمل فيها ؟

أعتقد لأنه لا يريد أن يعرفوا أنه أصيب بانهيار عصبى ..

كان يقضى الوقت هناك ينظر للسقف ويحملق فى المروحة التى تدور بلا انقطاع . كان يدخن بفظاعة ولا يكف عن إرسال العمال لشراء المزيد من التبغ له برغم أن هذا ممنوع هنا .

من حين لآخر كنت أجلس جواره فى الغرفة ، وأقرأ له من الكتاب المقدس . كان ينتمى لديانة سيمون كيمبانجو Kimbanguism . لم يكن متدينًا لكنه اختار هذه الديانة ، لأن البلجيكيين كانوا يحرّمونها . بينما كنت أنا بروتستانتية لكننا وجدنا أرضية مشتركة للتفاهم نوعًا .

كان قد بدأ يميل إلى الشك ، وقال إنه ما دام الشر ينتصر دائمًا والضعفاء يسحقون ، فمن الصعب تخيل وجود إله يقبل هذا .. لكنى قلت له إن العالم الآخر سوف يعوضنا عن هذا كله . لو لم يوجد عالم آخر فلا عدالة ...

لم يكن يصغى .. هذه الآلام تنتهى عندما تنتهى .... لا تجدى أى كلمات هنا .

★ ★ ★

كان د. أناتول جارى فى ذلك الحى فى كينشاسا . نعيش على أطراف

البلاد حيث يفصل نهر الكونغو بيننا وبين الكونغو برازفيل . لقد كبر وكبرت عبر الأعوام ..

أعرف قومه وأعرف أسرته جيدًا ...

فيما بعد توفى الجميع فلم يبقَ سواه يعيش وحيدًا فى ذلك البيت من طابق واحد . بيت متواضع .. لكنى كنت أعرف أن دخله كطبيب من المكان الذى يعمل فيه ليس مجزيًا .. كان هذا المكان يدعى سافارى 7 .. أعتقد أنه من المنظمات الدولية المعروفة . وكان يقضى معظم اليوم هناك .

زيارات ؟ . لم يكن أحد يتردد عليه سوى بعض أصدقاء الطفولة المحليين . لكنى اندهشت جدًا عندما اعتاد أن يتلقى زيارات من طبيب ملتحٍ يبدو أقرب للعرب فى ملامحه . طبيب يمكن أن يكون مصريًا لو كانت فراستى صحيحة .

يجب أن أعترف أن أناتول لم يكن يميل لى .. كان يعتبرنى جارة طيبة القلب لكنه لم يعتبرنى امرأة على الإطلاق ..

بالفعل اختفى أناتول لفترة ..

لا يمكن أن أحكى التفاصيل حتى لا أتعرض للخطر . يقولون إنه تم

اعتقاله عند الفجر .. لا أعرف التفاصيل .. صحوت من النوم لأسمعهم يتكلمون عن الغارة الليلية التى قام بها رجال الشرطة على البيت ..

لم أعرف سبب اعتقاله لكن هناك إشاعات . على كل حال يعرف الجميع أن أباه جلوار كان محاميًا شيوعيًا معارضًا ، وقد اعتقل فى عصر موبوتو . فى أيام موبوتو كان معنى الاعتقال أنك تلاشيت من على وجه الأرض للأبد . لن تخرج أبدًا . ثمة احتمال لا بأس به أنك استخدمت فى إطعام التماسيح فى نهر الكونغو ، فالمحميات لم تكن موجودة وقتها وإلا لأطعموا به الأسود ..

لا أعتقد أن أناتول كان يملك أى ميول سياسية ولم يكن يهتم بشىء خارج طب الحميات .

ما حدث بعد هذا بأيام كان عسير التفسير ..

فى الواحدة بعد منتصف الليل سمعت صراخًا .. هرعت إلى الباب وفتحته فوجدت الناس فى الشارع يصرخون ، وقد خرجت النساء من بيوتهن حافيات الأقدام ، بينما الرجال يحملون دلاء الماء ..

كانت ألسنة اللهب تتصاعد للسماء ، والضوء البرتقالى يترقرق على الوجوه ..

بيت أناتول يحترق ..

الدخان الرمادى يتصاعد لعنان السماء ، والماء يسيل ليغرق الأرض ..

صاحب البيت ليس موجودًا ليدافع عن بيته أو ممتلكاته الثمينة .. لا أحد يعرف أين يضع ماله أو صور حبيباته أو حلى أمه .. ليس هناك من على استعداد أن يقتحم النيران من أجل لا شىء .. فى النهاية البيت خالٍ من البشر ..

هكذا ظل المشهد عدة ساعات .. فى النهاية انتهى وحش النيران الغاضب من وجبته وشبع .. قرر أن ينام أخيرًا ويغط ..

بالطبع لم تتوصل الشرطة لشىء ...

وساد الحى جو من الكآبة . كل شىء كان رماديًا . ثم انهمرت الأمطار ..

وما لم أعرفه هو أن أناتول كان سيعود بعد يومين ..

★ ★ ★

كان هذا وقت الغروب عندما سمعت الصرخة ..

خرجت من بيتى فوجدت شبحًا متهالكًا يقف بصعوبة وينظر إلى بقايا البيت . كان هذا هو د. أناتول نفسه .. لقد عاد ، ومن الواضح أنه يرى بيته للمرة الأولى منذ احتراقه ..

كان يحسب أنه سيعود ليجد الجدران والذكريات فى مكانها ..

كانت عينه متورمة شبه مغلقة و شفته مشققة كأنما قد نزفت كثيرًا، ومن الواضح أنه فقد سنًا أو سنين ..

دنوت منه ووضعت يدى على كتفه وقلت :

ـ « لم نستطع عمل شيء يا دكتور .. »

انتفض فى عصبية وأبعد يدى عنه ..

ـ « دكتور أنا جوسلين جارتك ! »

لكنه ازداد عصبية .. كان يقول كلامًا مختلطًا لم أفهم كنهه .. كان يرتجف . أملك بعض الخبرة الطبية ويمكننى أن أؤكد أنه مصاب بانهيار عصبى . سقط على ركبتيه وراح يصرخ بالفرنسية :

ـ « الأوغاد !... لقد طفح الكيل ! »

جاء ثلاثة من الجيران وأحاطوا بنا ..

هنا نهض أناتول ولكم أحدهم ثم ركل الآخر ... إنه سيؤذى نفسه هذا الأحمـق . صحت أطالبهم بأن يمسكـوا به ، لكن الهياج جعله يصرخ .. يقاوم ويضرب ..

الكثرة تغلب الشجاعة ، وقد تعاون الجيران على تقييده ، ثم ظهر فرانس بالدراجة البخارية العتيقة ، وتعاون مع أحد الرجال على

وضع الطبيب بينهما لنقله إلى المستشفى . مستشفى مونكول قريب ومناسب .

كنت أعرف أننى ساعوده هناك مرارا .. ما زلت أحمل له الحب والتقدير .. لن يحبنى أبدًا لكنه سيظل يضىء فى روحى ويمنحنى الدفء ..

هكذا رحت أزوره هناك وأحاول التخفيف عنه .. الحقيقة أننى اتخذت دور الزوجة أو الأخت الرءوم معه ، فرحت أجلب له الطعام وآخذ ثيابه لأغسلها ...

ومع الأيام بدا لى أنه يتحسن ، وإن لم يحك لى قط عما حدث فى فترة غيابه ..

عندما خرج شعرت بأن العمل فى سافارى سوف يعيد له اتزانه النفسى ..

ثم عرفت أنه أصيب بنوبة هياج وقتل دوسكانيش وفتك بعدة عاملين فى الوحدة . هناك جزء مفقود لا أفهمه ولا أستطيع تفسيره .. د. أناتول يقتل ؟ .. مستحيل ..

ترى ماذا حدث ؟ ما الذى فعله هناك بالضبط ؟

لن أعرف أبدًا ...

شهادة د. علاء عبد العظيم
(طبيب فى وحدة سافارى 7)

لم أكن شجاعًا . أنا قد قضيت وقتًا لا بأس به مع نفسى ، منذ ولدت حتى اليوم . لهذا أدرك جيدًا أننى شريف طيب القلب ، لكننى لست شجاعًا ..

لا تندهش من كلامى .. هناك أشخاص - بالمعنى الحرفى - لم يجدوا وقتًا كافيًا ليجلسوا مع أنفسهم ويعرفوها . من ضمن هؤلاء أولئك الذين يتزوجون فى سن مبكرة جدًا .. هؤلاء قد لا يعرفون أنفسهم بتاتًا .

أقول إننى لست شجاعًا ..

لكننى كنت أحب أناتول بحق ، وكنت أدرك أنه رجل نظيف ذو مثل عليا وأعصاب ملتهبة عارية .. هذا الطراز من الناس ينفجر بسهولة لكن بوسعك أن تحبه بصدق ..

هل لى أن أجلس يا سيدى ؟ أنا مرهق بالفعل ، وأشعر أن هذا كله كابوس طويل .

معذرة لأن لدىَّ سنَّين مهشمتين .. هذا يجعل كلامى عسيرًا كما تعلم ..

أنا جئت إلى الكونغو منذ شهر ونيف .. كانت لى تجربة قاسية نوعًا فى الكاميرون .. وشعرت بأننى أستحق إجازة . وحدة سافارى -7 فى الكونغو مهمة جدًا وهى قلب أفريقيا فعلًا . صحيح أن هناك كمًا هائلًا من العمل ، لكن الحياة آمنة على قدر علمى ، وأعتقد أننى أحب المدير الكونغولى آرثر برسين كثيرا ، فهو رجل مهذب لطيف .. ومساعدته البلجيكية آن ليراى لطيفة .

منذ وصلت هنا وأنا أعمل معظم الوقت فى قسم الحميات . لسبب ما لم يتركونى أذهب إلى قسم الجراحة . لا أشعر بأننى على سجيتى إلا فى قسم الجراحة .

صباح اليوم دخلت إلى عنبر الملاريا ، فقابلتنى الممرضة السويدية (أنجا) وهى شىء بارد كالثلج شديدة السماجة . أنت تعرف يا سيدى أن وحدة سافارى شبيهة ببرج بابل يتكلم الجميع فيه الفرنسية . قالت لى بملامحها الثلجية إن هناك حالة يشتبه فى أنها نزفية ..

هذا خبر خطير .. حمى الكونغو - القرم متوطنة هنا ، وكما يوحى الاسم فهى موجودة فى الكونغو وشبه جزيرة القرم .. أخطر أنواع

الحميات النزفية . يبدو أنه لابد من إبلاغ الإدارة ، وهى ستبلغ وزارة الصحة .

من الغريب أن الممرضة فى ذلك اليوم بالذات طلبت أن نأخذ رأى د. أناتول .. قالت لى إن الرجل بارع فى الحميات وبالتأكيد يعرف حمى القرم بسهولة ..

قلت لها وأنا أغلق أزرار المعطف :

ـ « هو فى المصحة النفسية .. لا نعرف متى يعود »

اتسعت عيناها ذاتا اللون الفستقى وقالت :

ـ « لقد عاد . شاهدته هنا اليوم »

كان هذا خبرًا رائعًا ، زرته مرة واحدة فى المصحة منذ احترق بيته . بدا لى كأنما تم تجويفه من الداخل . وتذكرت قصيدة الرجال الجوف لت . س . إليوت . هو هيكل خالٍ من المشاعر . يلبس قميصًا أبيض واسع الياقة يكشف عن صدره النحيل ومن الواضح أنه لم يتم كيه منذ أشهر . يمكنك أن ترى صدره الملىء بالكدمات والخدوش .

فى تلك الزيارة رأيت جارته السمراء .. أعتقد ان اسمها جوسلين . كانت قد جلبت له بعض الطعام والفاكهة . يبدو أن قصة حب جديدة تولد هنا بعد قصة سيرين .

قلت له عندما انفردت به :

ـ « أعرف أن ما حل بك قاسٍ .. لا أعرف كل التفاصيل المستجدة . لكننا لا نتفتت إلا إذا أردنا ذلك يا أناتول .. أنت أقوى من هذا .. »

كان يرفض تمامًا الكلام عن فترة اعتقاله . هذا سلوك اعتدته مع من يلقون تعذيبًا مهينًا يذهب بالعقل . يتم تسويد هذه الحقبة من ذاكرتك تمامًا . أو لو لم يتم تسويدها يرفض المريض الكلام عنها .

قلت له ما قاله عبد الهادى لأبى سويلم فى الأرض :

ـ « لم تكن تلك شجاعة ممن ضربك ولا جبنًا منك »

نظر لى طويلًا ثم انفجر فى البكاء . وهتف :

ـ « أنت لا تعرف كل شىء .. »

كان هذا كافيًا لى كى أخرس .

طلب منى ألا أزوره . لا داعى لذلك . جوسلين تقوم بكل شيء يريده وتطعمه وتغسل ثيابه .. لا داعى أن أقلق . عرفت أنها رغبة مقدسة يجب أن أطيعها .

الآن تخبرنى الممرضة السويدية السمجة أنه عاد إلى الوحدة .

قلت لها :

ـ « سوف أذهب كى .... »

فجأة سمعت صوت طلقات بندقية آلية . هرعت بلا حذر إلى النافذة وفتحتها فصاح صانع من الطابق السفلى : احترس !.. إنه يطلق الرصاص فى الهواء ..!!

وكأنما هو تأكيد لكلامه اصطدمت طلقة بخصاص النافذة التى فتحتها ، فارتميت أرضًا تحت النافذة ..

من باب العنبر جاءت ممرضة مذعورة ... صاحت فينا :

ـ « تواروا !... دكتور أناتول قد جن !! »

أصابنى الذهول فسألتها عن نوع الجنون . قالت :

ـ « يطلق الرصاص على الجميع .. معه بندقية آلية سرقها من جندى »

آموك !..... لحظة الجنون الفعلى الذى يجعل أحدهم يطلق الرصاص على رفاقه فى العمل فى وقت واحد .. هناك قتل جماعى Mass murder وقتل لأشخاص متباعدين فى نفس الوقت Spree murder ... لماذا يفعل هذا ؟ هل كان الضغط العصبى قويًا لهذه الدرجة ؟

صوت الطلقات يدوى والمكان يرتج ..

شعرت بأننى منوم مغناطيسيًا ..

كان قد دخل غرفة الاتصالات .. وسمعت صوت طلقات . لابد أنه قتل الموظفين البائسين . رائحة البارود والدخان عبر الردهة . قلت لنفسى : لن يقتلنى ... أنا أقرب أصدقائه له .. إنه صديقى .. لن يقتل أبرياء آخرين بدت لى فكرة جثتى على الأرض غارقة فى الدم وقد تحولت لبطاقة حاسب مثقبة ، ويكون فاعل هذا هو هذا الطبيب الهادئ . بدت لى فكرة سخيفة غير ممكنة الحدوث . شعرت بما يشعر به مدرب الأسود عندما يفر أسده الحبيب ويمزق الناس . عندها يدنو هو منه ، لأنه لا يتصور أن يمزقه الأسد صديقه هو بالذات . ما زلت أشعر أننى كنت على حق .

هكذا دخلت إلى غرفة الاتصالات فى تؤدة وحذر ، وبصوت حاولت جعله مهدئًا قلت :

ـ « د. أناتول .. أرجوك أن تلقى بهذا السلاح ! »

لسبب ما وجدتنى أتكلم بصيغة رسمية برغم أننا صديقان جدًا .. لم يقتلنى كما توقعت .. فقط قال :

ـ « ابتعد عنى يا دكتور عظيم .. لا أحب أن أرى جثتك »

لنفس الأسباب الغامضة يتكلم بهذه الصيغة الرسمية ، مع أنه يناديني فى العادة بـ (علاء) .

ـ « أنت لن تقتلنى .. أعرف هذا .. لكنى كذلك أكره أن أرى جثتك الممزقة »

صرخ أناتول :

ـ « أنا قد تجاوزت فرصة الخلاص .. انتهى أمرى .. لابد أننى قتلت عشرة على الأقل بعد هذا الكلب .. »

ثم استند إلى الجدار وراح يبكى .. كانت البندقية فى وضع ممتاز غير مصوبة لى ، وبعيدة عن يده نوعًا . ربما لا توجد فرصة أخرى ..

وثبت على البندقية محاولًا سرقتها ، لكنه كان قويًا ..

تمسك بها بعنف . وارتمينا على الأرض .. كنت أحاول أن آخذها منه دون أن يطلق الرصاص لكنه وجه لى لكمة قوية فسقطت على ركبتى . هنا هوى بمؤخرة البندقية على مؤخرة رأسى فكاد يهشمه وللحظات غصت فى الظلام ..

خرج يجرى فى الممر ، ثم سمعت صوت الطلقات تنهمر .. هذه المرة هى طلقات واثقة مدربة ، تختلف عن طلقاته المترددة الخجول .. هذه هى القوات المسلحة .. لا شك فى هذا ..

حاولت النهوض جاهدًا .. أنا منهك .. لا شك أن هذا هو ما بعد الارتجاج . سوف أفرغ معدتى حالًا أو أفقد وعيى ثانية . لكنى كنت قد خمنت ما حدث .. الممر كله تحول لدخان وبارود وصخب ..

لم أدرك أننى أبكى إلا عندما سمعت صوت أنينى ..

لقد تعرض أناتول لضغوط هائلة حتى يقتل زملاءه بهذا التوحش ، ولكن ما السبب ؟

لا أملك الجواب اليقين يا سيدى ، وأعتقد أن باقى الشهود يمكن أن يقدموا لكم معلومات أكثر . أنت تعرف قصة العميان مع الفيل وكيف قال بعضهم إنه خرطوم طويل وقال البعض إنه يشبه المروحة وقال البعض إنه منشة وقال البعض إنه أربعة أعمدة . كلهم كانوا صادقين لكنك تحتاج لشخص مبصر كى يعطيك الصورة النهائية .

أعتقد أن من سيجمع كل خيوط التحقيق قادر على أن يعطيك الجواب اليقين .

على فكرة أجريت الفحص الإشعاعى وتبين أنه لا كسور فى جمجمتى .. هذه أنباء طيبة وسط هذا السواد .

شهادة د. شارل ميجريه
(من صندوق الحفاظ على الأجناس المهددة)

المرض الزائيرى .. Le mal Zairois ..

هذا هو الاسم الذى كان موبوتو الدكتاتور يطلقه على الفساد المتفشى فى زائير – الكونغو قبل أن يغير اسمها – وبرغم هذا كان فى حاجة ماسة إلى هذا الفساد . حسب بعض التقارير ، هو قد اختلس من دخل البلاد خمسة مليارات دولار لنفسه ، ثم إنه كان محتاجًا لإطعام كل أفواه الفاسدين من حوله وكل الجنرالات فى كاتانجا . أعتقد أنه لم ينس منظر لومومبا المقيد المتجه للرمى بالرصاص . لم يكن يريد أن ينتهى به الأمر كذلك . لابد من شراء ولاء هذه الكلاب المسعورة .

اعتقد موبوتو أنه تخلص من سيطرة الاستعمار ، عندما تخلص من اسم الكونغو الوارد فى كتب الجغرافيا الغربية ، واستبدل به اسم زائير . الحقيقة أن زائير نفسها تحريف برتغالى للفظة (نزير) أى النهر الذى يبتلع كل الأنهار . ليوبولدفيل صارت كينشاسا .. أليرتفيل صارت كاليمى ..

لم تكن هذه هى المشكلة . استقلال أسماء وعلم جديد .. لكن فى النهاية تبقى حقيقة أن الاستعمار الغربى رحل ، ليبدأ استعمار

وطنى .. ويعود الاستعمار الغربى فى صورة احتكارات وشركات . من لم يلعب اللعبة بقواعدها وجد نفس واقفًا أمام طابور الإعدام كما فعل لومومبا ..

رحل موبوتو عام 1997 عندما انقلب عليه لوران كابيلا ، وعاد للبلد اسم الكونغو من جديد ، لكن المشاكل مستمرة ..

لم يطالب أحد البنوك السويسرية بأموال موبوتو التى نهبها ، وهكذا بعد أعوام قضت المحاكم السويسرية بأحقية أسرة موبوتو فى ملياراته فى المصارف السويسرية ..

كعادة أفريقيا تظل الحروب الأهلية لعنة دائمة ..

فى هذه المنطقة كانت حروب التوتسى والهوتو دائمة الاشتعال . زائير كانت تساند المتمردين الهوتو من رواندا، وهكذا كانت فى حالة حرب دائمة مع رواندا وأوغنده ..

عام 2001 تم اغتيال لوران كابيلا ليأتى ابنه جوزيف كابيلا ..

وسط هذه الظروف وكل هذا الفساد ، كان متوقعًا أن تتدهور الحياة البرية تمامًا ..

الناس كانوا يقتلون الغوريلات من أجل لحومها أو ليبيعوا أيديها المبتورة كمطفأة سجائر . الناس كانوا يصطادون الأسود وبدأت أرقام

الحيوانات البرية تهبط بشكل مروع . إنه الفقر والجوع ، دعك من أن كل حراس المحميات هجروا وظائفهم وانضموا للجنود .. هنا أجور عالية وحياة المغامرة ..

معظم أجناس الحيوانات فى هذا البلد فاحش الثراء قد بدأت تدخل قائمة الأجناس المهددة .

أنا بلجيكى متخصص فى الحياة البرية ، ولهذا الغرض أرسلتنى اليونسكو إلى الكونغو عام 1999 ومعى فريق مهمته الحفاظ على الحياة البرية بالتنسيق مع الحكومة ، وقد قصدنا (جوما) لتكون بداية العمليات ، لكننا لم نجد حكومة .. لم نجد شيئًا على الإطلاق ..

لا شىء سوى الجثث الممزقة مبتورة الأطراف والأكواخ المحترقة .. متوسط القتلى كان أربعين ألفًا كل شهر ، وقد قدر ضحايا النزاعات بمليون إلى خمسة ملايين !!

لا يمكن وسط كل هذه الدماء أن تقول إنك قلق على الغوريلا .. سوف يقتلونك ..

والمرأة التى جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ما سيحدث ؟

★ ★ ★

فى هذه الظروف المضطربة تعرفت على الطبيب الكونغولى أناتول جلوار. كان فى العقد الرابع من عمره وقتها . لقد تطوع فى هذه الظروف القاسية لأنه يعرف أن أهل بلده يموتون . كان أبوه محاميًا شيوعيًا اعتقل واختفى فى عصر موبوتو .. كل الناس اختفوا فى عصر موبوتو ..

هناك كنا نكمن فى معسكرنا بينما تدوى الانفجارات والطلقات .. ضمن صراع لا ينتهى بين التوتسى والهوتو . لو كنت قد رأيت الفيلم الرائع (فندق رواندا – 2004) فأنت تعرف عما أتكلم . لسبب ما يرفض الناس أن يوجد آخرون لا يبدون مثلهم ولا يفكرون مثلهم .. لابد من رفض الآخر .. الكاثوليك والبروتستانت .. المسلمون والمسيحيون .. السنة والشيعة .. التوتسى والهوتو .. البيض والسود .. ولو تساوى الناس جميعًا لبدأت الحروب العرقية بين طوال القامة وقصارها .. مستحيل أن تعرف التوتسى من الهوتو .. وفى كل مرة يعتبر أحد الطرفين أن بوسعه بعض الجهد أن يبيد الطرف الآخر، وهو شىء مستحيل ..

على العموم كان شرق الكونغو يشهد نزوحًا هائلاً للهوتو الفارين من رواندا ..

من وقت لآخر ترى عربة جيب يركبها جنود سود مسلحون يلوحون لنا محيين فى زهو القوة ، ثم ترى عربة أخرى قادمة من الاتجاه الآخر ومن الواضح أنهم ذبحوا المجموعة الأولى . الكل فخور جدًا بالسلاح الذى يحمله ، وما من أحد يدرك أنه يطلق الرصاص على نفسه ، وأن المستفيد الوحيد من هذا الدم هو تجار السلاح .

كنت ترى القرى وقد تحولت إلى شعلة نار والدخان الأسود يتصاعد للسماء ، بينما تحلق مروحيات سلاح الجو الكونغولى فندفن رءوسنا وسط الأعشاب ..

أنت تعرف أنك تتلقى طيلة الوقت لدغات ذبابة تسى تسى التى تنقل مرض النوم .. تعرف أن هناك ملاريا وحمى صفراء و .. و .... لكن يظل الخطر الأكبر هو الإنسان نفسه .. هو أخطر من أى فيروس أو بكتريا ...

كان أناتول يقول لى وهو يبصق :

ـ « هل تتصور أننا ثانى أعلى دول العالم فى وفيات الرضع ! »

ـ « والدولة المحظوظة الأولى ؟ »

ـ « تشاد طبعًا »

قلت له فى صبر :

ـ « لابد أن تكون هناك دولة تعسة الحظ »

قال فى غيظ :

ـ « ليست دولة بهذا الثراء الفاحش .. دولة تملك معظم يورانيوم وبوكسيت العالم ، وفيها أغنى حياة برية على ظهر الأرض . لقد استولت دولتك بلجيكا على كل شىء لدينا ومنعتنا من استغلال ما بقى »

قلت ضاحكًا :

ـ « لا ذنب لى .. ثق أننى لو صرت رئيس وزراء بلجيكا ، فسوف أعيد لكم حقوقكم فورًا »

كنا نتردد على القرية المجاورة كثيرًا ، وقد انعقدت صداقة بين أناتول وصبى فى السابعة قام بخياطة جرح فى ركبته . كان الصبى يأتينا كثيرًا فى معسكرنا ليجلب لنا الماء أو الموز .. وأحيانًا كنا نلعب كرة القدم ، فأقف أنا كحارس مرمى ، بينما يلعب هو وأناتول دورى المهاجمين .. اللعب مع الأفارقة شبه مستحيل ؛ لأن لياقتهم وسرعتهم مذهلة .

اسمه جيلداس . له ضحكة فاتنة تظهر أسنانه كلها .. لابد أن تقع فى حبه، وكان يتحدث باللغة السواحلية .. أناتول يجيد الفرنسية والسواحلية كما أن اختلاطه برجال الجيش قد علمه لغة لينجالا . لا

تس أن هناك 242 لغة فى هذا البلد ! .. من أغرب الحقائق أن البلجيكيين كانوا يرغمون المواطنين على استعمال اللغات المحلية .. فلما رحلوا صارت الفرنسية هى اللغة الشائعة لدى الجميع !

قال لى أناتول وهو يقضم الموز :

ـ « يومًا ما سأتزوج فتاة طيبة ، ولسوف تعطينى طفلًا خفيف الدم مثل جيلداس . لكن المشكلة هى أن تاريخى مع الأمن أسود .. سأصيب الصبى بعدوى خلقية من سوء السمعة الأمنية ، كما تنقل الأم الإيدز لطفلها ! »

ضحكت كثيرًا .. ورحنا نراقب الدخان المتصاعد فى عنان السماء .

كان أناتول شاعرًا وقد قرأ على مقاطع من الشعر الفرنسى الردىء الذى كتبه . لم أجرؤ على إخباره بأن هذا شعر ساذج ، لكن أناتول نفسه كان قصيدة بلا شك .. أبلغ من كل شعر قام بتأليفه .

قلت له إننى سأعود مع رجالى فلا شىء يمكن عمله هنا . من دون استقرار سياسى لا يمكن الكلام عن عدد الأسود والوعول ..

قال فى هم :

ـ « وهل تتوقع استقرارًا فى أى مكان من أفريقيا ؟ »

ـ « ما أعرفه يقينًا هو أننى لن أقدم خدمة للأجناس المنقرضة لو هلكت »

المرأة التى جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ؟

★ ★ ★

هناك تحت الخيام كان يضمد جراح بعض الجنود .. معه طاقم تمريض من الرجال ؛ لأن من الخطر أن تجلب أنثى لعرين الضباع هذا ...

الجندى يصرخ ويضرب أناتول بقبضته، لكن هذا لا يتراجع .. يواصل اعتصار الصديد من الجرح .

هنا ظهرت تلك المرأة الحافية ممزقة الثياب .. كانت تصرخ فى جنون وهى تركض كاشفة عن أسنانها التى تساقط معظمها بفعل نقص الكالسيوم وسوء التغذية . الدم ينزف من أنفها وواضح أنها تلقت علقة ساخنة كما أن هناك جرحًا قطعيًا فى صدرها ..

كانت تصرخ :

ـ « إنهم اقتحموا القرية !... يقتلون الجميع ! »

هناك دائمًا قرية يتم اقتحامها وتحترق .. ويتم قتل أطفالها بالسنجة، حتى لا يكبروا ويصيروا من الجنس المعادى ..

تبادلت وأناتول نظرة واحدة ، ثم جرينا نحو القرية ونحن نسمع صوت إطلاق الرصاص . لن يؤذونا .. كل الجنود يعرفون أننا نساعدهم ونضمد جراحهم ، وأننا مدنيون لا نقاتل ..

كانت الأكواخ الحقيرة تشتعل .. ورأينا الجثث المتناثرة .. بعضها مزقته طلقة وبعضها مزقه سكين .. ومن بعيد نرى الجنود ينجزون مهمتهم الخلاقة في قتل الأربعين ألف كونغولي لهذا الشهر .

صاح أناتول وهو يتقدمني :

ـ « أين جيلداس ؟ »

كنت أتوقع إجابة شنيعة .. سوف نجده بالتأكيد لكنه لن يضحك .. لن يتحرك ... سيكون كتلة لحم ممزقة .

فجأة برز لنا الصبي من داخل كوخ مشتعل .. كان يصرخ مذعورًا ومن خلفه كان جندي غليظ أسود أصلع الرأس يلوح بسونكي بندقية وهو يضحك كاشفًا عن أسنان من عاج ..

لابد أن الجندي فتك بالأسرة كلها ..

صحت أنا بالفرنسية :

ـ « لا تخف يا جيلداس .. سوف ننقذك ! »

توقف أناتول ومد ذراعيه جانبًا كأنه يتوازن على جذع شجرة ..

راح يقول شيئًا بلغة اللينجالا وهو يشير لي .. يمكن فهم القصة على كل حال : نحن صديقان .. أنا كونغولي وهو بلجيكي .. نحن نخدم الجرحى . لا تؤذ هذا الطفل يا أخي .. أرجوك ..

للحظة بدا أن الجندي بدأ يلين ..

احتضن الصبي إلى بطنه في شيء من الحنان ، فهدأت نفوسنا ..

هنا مرر السونكي تحت عنق الصبي مرة واحدة ، ورأينا الصبي يتداعى ليسقط أرضًا بينما انفجر الجندي ضحكًا .. بدت له هذه دعابة أظرف مما يمكن وصفه .. هاهاهاها ..

- « لا !!!!!!!!!!!!!!!!!! ! »

الفارق لحظة بين طفل حي مذعور وبين جثة قطع حلقومها .. كان من الممكن أن ينجو من ربع ثانية .

وثب أناتول على الأرض وزحف كالكلب نحو الصبي ، واحتضنه لصدره .. معطفه الأبيض صار بلون الدم كله ، فضحك الجندي ووجه ركلة لخصر الطبيب ليسقط أرضًا .. ثم نظر لي ولوّح بإصبعه في وجهي : بان !.. كأنه يطلق الرصاص ..

وسرعان ما ظهر الجنود من كل مكان يضحكون ولحقوا

بزميلهم . بعضهم كان يعيد ارتداء السروال مما يدل على أنهم لم يكونوا يمارسون القتل فحسب .

نظروا لنا وتجاهلونا فقد أدركوا أننا بلا خطر وأننا أطباء أو شيء من هذا القبيل .. فقط كان أناتول على الأرض يبكى كالنساء ..

عندما جاء المساء كان هناك ضوء باقٍ من اللهب .. لم تحترق الأكواخ كلها ، وجاء من بقى حيًا ليدفن أقاربه .. من الصعب أن تعرف الهوتو من التوتسى .. بكاء وعويل ولطم خدين ..

قمنا بدفن الصبى تحت شجرة جوار القرية ، وعرفنا أنه كاثوليكى فغرس أناتول صليبًا خشبيًا صغيرًا على قبره ..

لم يتكلم أناتول لمدة يومين بعدها ..

لا شك أن هذا المشهد قد أحدث ندبة هائلة فى روحينا ، ودعنى أؤكد لك يا سيدى أننى لو وجدت بندقية لأفرغتها فى ذلك الجندى ثم تلذذت برمى جثته للكلاب ..

أنا أفهم أن يولد العنف فى نفس المرء من مشاهد كهذه . لكن لا أفهم لماذا يفتك المرء بأصدقائه وزملائه الأبرياء ؟

إن فى حياة أناتول لغزًا يا سيدى ..

والمرأة التى جاءت من بعيد تركض . هل كانت تعرف ؟

شهادة إيمانويل جوليمى
(جار سيرين)

لا أعرف يا سيدى إن كان لدىّ ما أقوله ..

أنا أكره أن يأخذ أحد شهادتى فى هذه الأمور . حتى لو وعدتنى بالحماية فأنت لا تستطيع حماية شخص للأبد . لابد أن تغفو أو تغفل ، وعندها ينتقمون منى ..

ليس لدىّ الكثير مما يقال كما قلت لك ..

(سيرين دراش) كانت تعيش فى هذا الحى مع أسرتها . أسرة فقيرة هى .. كلنا فقراء كما تعلم . كانت سيرين فتاة رقيقة تعمل معلمة فى المدرسة الابتدائية القريبة من هنا . كنت تراها عندما ينتهى اليوم وهى تخرج من المدرسة وقد ضمت دفترها إلى صدرها وأمسكت بيد طفلة سوداء صغيرة منكوشة الشعر .. الطفلة تمسك بيد زميلتها .. وزميلتها تمسك بيد زميلها . هكذا طابور طويل من الدجاج يمشى وراء سيرين .

تعبر الطريق ثم تقف على الرصيف تنتظر قدوم الأمهات لتأخذ كل واحدة دجاجتها .

لا أعرف إن كانت سيرين جميلة .. أحبهن بدينات يتواثب كل جزء منهن فى اتجاه ، وأشعر مع هذا الطراز من الفتيات الناحلات أنهن مريضات أو مصابات بعاهة ما . لماذا تسمح امرأة بنفسها بألا تكون مكتنزة بدينة ؟. لكن ما أستطيع قوله هو أن شبابًا كثيرين كانوا معجبين بها ، ومنهم دوسكانيش بالطبع . طبقًا لهذا فلابد أنها حسناء وأنا حمار .

ثم يصل د. أناتول . إنه يعرف طريقه ..

هذه المدرسة النحيلة الحسناء ، والطبيب الوسيم الذى يحمل بعض علامات (التشريط) القبلى على خديه ، وهى علامة محببة عندنا كما تعلم. لابد أنه مفخرة قبيلته .. نحيل .. أسود .. له نظرة رقيقة حزينة .. يلبس قميصًا أبيض واسعًا قصير الأكمام يبقيه خارج البنطال . صحيح أن فارق السن بينهما كبير فعلًا ، لكن من الواضح أن هذا حب عابر للمسافات والسنين ..

تتشابك اليدان معًا ويمشى معها . ينظران للأرض ويتكلمان .

أنا رجل متقدم فى العمر ، تعلمت أن الحياة برميل من القذارة ولا يوجد أمل على الإطلاق ، لهذا كنت أحب هذا المشهد كثيرًا . يسعدنى أن أرى الحمقى يعيشون حياتهم .. كما يحب الكبار أن يروا سذاجة الأطفال وهم يلهون . إنها تعشهم برغم كل شىء .

يوصلها لباب دارها ، حيث تجلس أمها العجوز سولونجا على عتبة الدار تقطع الكسافا .

تتكأكأ من حولهما الدجاجات وتتصايح .. فتدفعها سيرين دفعًا رفيقًا بحذائها .. يحيى الأم العجوز ثم ينسحب فى رشاقة ..

تلك قصة حب وليدة ..

تذكرنى كثيرًا بزوجتى عندما كانت جميلة منذ ثلاثين عامًا ، وعندما كنت أنتحل الأعذار لأذهب لها . لم تعش طويلًا .. قتلت بالرصاص فى إحدى الحروب المستعرة فى بلادنا بلا توقف . وقد تركت أنا قريتى وجئت إلى كينشاسا مع طفلى . العاصمة أكثر أمنًا لحد ما .. فى الريف يمكن أن يحدث أى شىء بلا شهود أو عقاب أو اهتمام من أحد

قصة حب أناتول تذكرنى بهذا المشهد كثيرًا . كنت قد وصلت لحقيقة لا شك فيها : سوف يفترقان ويشعران بالتعاسة .. كل قصص الحب تنتهى لهذه الطريقة ..

لكن ما حدث كان قاسيًا يفوق ما توقعت ..

السيارة العسكرية التى توقفت ذات يوم وقذفوا منها شيئًا عند قمة الشارع . لم أدرِ ما هو لكن أطفال المدرسة ركضوا وأحاطوا بالشىء ثم تصايحوا فى رعب :

ـ « هذه الآنسة سيرين ! »

دارت السيارة دورة فى المنطقة كأنها ترهب الجيران حتى لا يتدخلوا ثم اندفعت وسط بركة من أوحال المجارى فتطاير الرذاذ فى كل مكان . وعندما ابتعدت أخيرًا هرعنا نحو سيرين ..

كانت هناك على الأرض وسط الوحل ممزقة الثياب .. وقد تلطخ وجهها بالدم وامتلأ بالكدمات .. كانت القصة واضحة. لكن لماذا ؟ لماذا فعل بها رجال الشرطة هذا ؟ الشرطة الكونغولية فاسدة لكنها لا تخطف المدرسات ..

كانت تبكى بلا توقف ..

هرعت مع جيرانى نحملها إلى دارها ، ورأت أمها المشهد فأصيبت بشيء من الخبال .. لم تعد قادرة على التعاون أو قول شيء .. تحولت إلى عجينة مذهولة ..

كانت الفتاة تردد بلا توقف :

ـ « أنا لن أرفض ثانية يا سيدى .. لا تؤذنى أرجوك ! »

ثم تصرخ وتصيح :

ـ « السيد دوسكانيش !! »

صار بوسعى أن أخمن ما حدث .. دوسكانيش فى الموضوع .

راحت امرأة تغسل وجه المعلمة الشابة من الدم ، وجاءت امرأة

أخرى تسقيها مزيجًا من اللبن والماء . وسترت إحداهن جسدها بملاءة . ذهبت أنا أبحث عن طبيب يراها . بالطبع أعرف بيت د. أناتول لكنى لن أجلبه هنا وإلا جُنّ .. لا أضمن رد فعله .

جاء طبيب أصلع الرأس يلهث من البدانة وفحصها . ثم قال إنها تعرضت لمعاملة عنيفة وحشية .. قام بخياطة جروحها وحقنها بمهدئ لتنام ، وإن قال إنها ستحتاج لوقت طويل كى تشفى من الصدمة العصبية ..

لا داعى للقول إننا تكفلنا بعلاجها ورعاية أمها يا سيدى . نحن قوم فقراء لكننا طيبو القلب .

★ ★ ★

ما أقلقنى هو مصير د. أناتول .

لقد اختفى من الصورة تمامًا ، وعرفت أنه مختفٍ .. قيل كلام عن كونه معتقلًا .. لا أعرف مدى صحته . لكن اختفاءه بعيدًا عن سيرين كل هذا الوقت لا يدل إلا على أنه سجين أو مريض أو مقتول ..

مرت أيام . وبدا لى أن الفتاة لا تتحسن ..

ولدت تلك الليلة مع قرص الشمس ينحدر خلف نطاق البيوت ، وكان الصبية يلعبون وسط أكوام القمامة بينما الكلاب تتبادل النباح .

جلست أنا على عتبة الدار أدخن وأتذكر زوجتي .. كانت حياة طويلة مرهقة من دونها، ولعل فكرة أن موعد اللقاء قد اقترب تريحني ..

هنا رأيت ذلك الشبح قادمًا من بعيد ..

كان يعرج قليلًا .. ويبدو أن يده لا تتحرك بسهولة .

أدركت من مشيته وهيئته الخارجية أنه د. أناتول نفسه . كان قادمًا وهو يجر رجلًا ويجذب أخرى .. لم يكن فى حال طيبة . نهضت وهرعت لألقاه ، فوجدت أن عينه شبه مغلقة شأن من تلقى لكمة قوية فيها ، كما أن شفته السفلى مشقوقة لشطرين . قميصه ممزق ..

يسهل أن تدرك أنه عومل نفس المعاملة التى تلقتها سيرين ، لكنهم أطلقوا سراحها أما هو فظل فى ضيافتهم فترة . هذا الذى حول معصمه حرق أقطاب كهربية فعلًا .

كان يتجه لبيت سيرين فجريت مسرعًا أسد الطريق أمامه وهتفت :

ـ « عودة طيبة يا دكتور ... لكن دعنى أخبرك أن آنسة سيرين تتعافى .. إن حالتها أفضل ... »

نظر لى وفى توحش قال :

ـ « تتعافى ؟ »

ـ « نعم .. أخذوها لفترة ثم أعادوها ... لا شيء .. هي صدمة عصبية وكدمات .. لا أكثر ... »

ـ « كدمات ؟ »

ـ « لقد اعتنينا بها .. كل الحي اعتنى بها .. نحن نتعامل كأسرة واحدة هنا و ... »

ـ « أسرة ؟ »

ثم مد يده في جيبي في صدر قميصي فانتزع علبة التبغ .. أخرج لفافة دسها بين شفتيه فأشعلتها له بعود ثقاب ويد ترتجف . قال في شرود والدخان يخرج من داخله كأن حريقًا في رئته :

ـ « أنا لم أعد لداري بعد .. جئت لأراها على الفور .. لم أعرف .. لم أعرف .. »

ثم ابتعد عنى متجهًا لدارها ... دق الباب فانفتح .. طوح بلفافة التبغ التي لم يسحب منها سوى نفسين ، واندفع للداخل .. بعد قليل سمعت صرخة مدوية ارتج لها الشارع :

ـ « دوسكانيش !! »

ثم انفتح الباب وخرج وهو يرتجف .. كان يبكي ...

قلت له إن الأمور تحت السيطرة وإن عليه أن يهدأ قليلًا ، لكنه لم يصغِ لي .. نظر لي بعينين لا تريان ، ثم إنه ابتعد متجهًا لبيته .. رأيت الشيطان في عينيه ، فأدركت أنه ذاهب للقتل .. سيجلب سلاحًا بلا شك وليس بوسعي منعه ..

ما عرفته بعد ذلك هو أنه لم يفعل .. لم يجد العقل الكافي لذلك ..

لقد وجد داره محترقة وقد صارت رمادًا .. أصيب بانهيار عصبي ونقل إلى مستشفى مونكول في كينشاسا ..

بعد هذا لا أعرف عنه أي شيء .. أما عن موضوع الهجوم وإطلاق الرصاص فبصراحة لا أقبل فكرة أن يفعل هذا .. لا أصدق .. هذا فتى وديع كالأرانب ..

لابد أن الضغط العصبي قد أحرق كل منصهرات روحه ...

لابد أنه جُنَّ يا سيدي ...

شهادة كريست جولمى
(صاحب متجر وجار د. أناتول)

أنا كنت هناك يا سيدى فى أكتوبر 1974 .. كنت فى الثالثة والعشرين من عمرى .. لا أجيد الحساب لذا يمكنك أن تستنتج سنى ..

كانت كينشاسا كلها ملتهبة بالحماسة ؛ لأن مباراة العصر كانت ستقام فيها . كانوا يطلقون على هذه المباراة اسم (هدير فى الغابة) .. ما زال قلبى يرتجف كلما سمعت أغنية (فى زائير) التى تحكى عن هذه المباراة الرهيبة(*) .

سيد الملاكمين وبطل العالم الذى لا يقهر محمد على كلاى ، يواجه الدبابة كاسحة القوة بطل العالم الجديد جورج فورمان ...

لقد هزم فورمان كلاى قبل هذا وصمم هذا الأخير على الانتقام .. كان اسم ذلك الإستاد (العشرون من مايو) وهو الذى صار اسمه (تاتا رافاييل) بعد رحيل موبوتو ..

رباه !.. كانت هذه مباراة القرن العشرين بحق !!

★ ★ ★

---

* https://www.youtube.com/watch?v=vbYwBy7DbXE
و ابحث عن اسم الأغنية Zaire In للمطرب Johnny Wakelin

على .. بومايبه !.. على بومايبه !!

(اسحقه يا على !.. اسحقه !)

★ ★ ★

ولدت المباراة كفكرة . عندما عرض منظم المباراة خمسة ملايين دولار على كلاى وفورمان من أجل المواجهة . كان هذا العرض عرضًا فى الهواء بلا سيولة مادية حقيقية .. أى أنه كان يبيع وعودًا . لكن دكتاتور الكونغو موبوتو سيسيكو تحمس للفكرة ووعد بتمويلها بشرط أن تتم المباراة على أرضه .

الرمز الواضح هنا هو أن هذين أفريقيان أمريكيان يتواجهان فى قلب القارة الأم .. إنهما وسط قومهما برغم خلافاتهما ...

هذا صار عيدًا أفريقيًا كاملًا . تزامن هذا مع قدوم نخبة من المطربين والفنانين منهم جيمس براون وبى بى كينج وميريام ماكيبا . جاءوا كلهم لتعيش البلاد أجواء شبيهة بالحلم .. أقيم حفل غنائى استمر ثلاثة أيام اسمه زائير 74 ..

لقد قضى الملاكمان فترة طويلة جدًا من التدريب فى بلادنا . واضح أنهما كانا يتأقلمان على طقسنا الحار . فيما بعد جرح فورمان فى

التدريب فتم تأجيل المباراة إلى أكتوبر بعد ما كان سبتمبر موعدها . وكانت صورتهما فى كل وسائل الإعلام وعلى كل الصحف ... لقد دعا العالم نفسه لمهرجان على أرضنا . مهرجان رياضى غنائى وراقص .

لكن الحقيقة التى كانوا يتجاهلونها هى أنهم إذ يمشون فى الإستاد مع موبوتو ، فقد كانت الأقبية تحت الإستاد تعج بسجناء الرأى الذين لن يروا النور ثانية أبدًا . عندما كان جيمس براون يغنى كانت تماسيح نهر زائير - الكونغو - تتناول وجبة العشاء من المعارضين .

★ ★ ★

على .. بومايه !... على بومايه !!

(اسحقه يا على !.. اسحقه !)

★ ★ ★

كان فورمان مغتاظًا من حماسة الجماهير لعلى كلاى ، وقد قال للصحافة أكثر من مرة :

- « لو كان التعصب بسبب الدين فأنا مسيحى مثلهم ، ولو كان التعصب بسبب اللون فأنا أكثر سوادًا من كلاى ! »

لكن السبب معروف .. إن الناس وقعوا فى جاذبية الشخصية الكاريزمية لكلاى ، وجعجعته وتفاخره الدائم .. لا أحد يفلت من سحر كلاى أبدًا . وبعد أعوام اعترف فورمان أنه لم يحب فى حياته شخصًا

مثل كلاى .. إنه إنسان رائع قبل أن يكون ملاكمًا .. ولعل فورمان كان صديقه الوحيد فى أيامه الأخيرة التعسة مع داء باركنسون .

منذ وصل كلاى للكونغو وهو لم يكف عن امتداح السود وتدليلهم ، وكان يقول فى قمرة قيادة الطائرة :

ـ « هل ترى ؟ أفارقة يجيدون قيادة الطائرة .. كلهم هنا يجيدون الإنجليزية والفرنسية بالإضافة للغتهم القبلية الأصلية . بينما نحن الأمريكان لا نتكلم إلا الإنجليزية ونتكلمها خطأ ، وبرغم هذا نسخر من الأفارقة ! »

بدأت المباراة فى الرابعة صباحًا بتوقيت كينشاسا . هذا الموعد الغريب سببه أن هذا وقت المشاهدة المناسب للمشاهد الأمريكى .

سر قوة كلاى هو مراوغته وخفة حركته التى ترهق خصمه .. إنه يحوم حول الخصم كالذبابة . ولو تلقى ضربة واحدة قوية من فورمان لكانت نهايته . كان فورمان هو الأقوى وهو الأكثر شبابًا .. عشر سنوات بين الرجلين تلعب دورًا مهمًا فى الملاكمة ..

لكن كلاى استطاع أن يسيطر وأن يهزم فورمان بالضربة القاضية ويستعيد لقبه .. لقبه الذى سيظل معه إلى أن يهزمه سبينكس ثم لارى هولمز .. ثم داء باركنسون الوبيل ..

أنا كنت هناك يا سيدى فى الإستاد فى أكتوبر 1974 .. كنت صغيرًا عاشقًا للحياة ، وقد رأيت مباراة جميلة بين رجلين قويين ، لكننا لم ننسَ للحظة أننا ونحن ننعم بالرياضة وبغناء جيمس براون ، كان الكونغو فى الخارج غابة كثيفة من الفقر والحروب الأهلية والاحتكارات .

هذا مخدر بسيط أراد به موبوتو أن ينومنا وينوم العالم ، وأعتقد أنه قد نجح ..

كان دكتور أناتول فى الثامنة من عمره وقتها ، ولا أعتقد أنه يتذكر أى شىء . فقط فرحة الأطفال بمباريات الملاكمة ، وكانت أمه قد قررت أن تعمل خادمة فى بيوت السادة الأثرياء بعد ما اختفى زوجها فى السجون .

كانت ذكرى جميلة ، وقد تركت علامة لدى كل مواطن كونغولى برغم أن هذا المهرجان كلفنا الكثير جدًا .

شهادة ويليام بيجيلى ريفوى
(رجل شرطة)

دوسكانيش كان واسع النفوذ يا سيدى ..

هو ليس فردًا فى الحكومة، وليس ثريًا .. هو مجرد رجل شرطة مرتشٍ يتمتع بصلاحيات قوية ، ويفرض إتاوات على كل الباعة . عندما يطلب قفصًا من المانجو أو سباطة موز من هذه البائعة أو تلك فهى لا تملك الرفض . عندما يقول إن متجرك مخالف فعليك أن تعد ما معك من فرانكات وتذهب له تسترضيه . هذا فساد بسيط لا يهدد أمان دولة فى رأيى .

أعمل فى المخفر فى هذا الحى ، وعملى متنوع يتراوح بين أعمال الشرطة الحقيقية وضبط المجرمين ، وتنظيف المكان ومسح الأرضيات ، وطبخ الطعام وتعذيب السجناء . أفعل كل شىء .

أنا حضرت فجر اليوم الذى جلبوا فيه د. أناتول إلى هنا . كثيرون يعرفون الطبيب الذى يعمل فى وحدة طبية لا أذكر اسمها هنا . هو رجل طيب مهذب فلا أعتقد أنه يشكل خطرًا على أحد . كما أنه فقير لا يستفز أحدًا .

انفتح الباب وقذفوا به للداخل بين أربعة رجال شرطة أشداء . كان حافيًا يلبس ثياب النوم وعامة بدت لى هذه معاملة لا تليق بطبيب ...

ألم تكن لكم زوجة مريضة عولجت عنده من قبل ؟

حاول أن يتكلم فتلقى صفعة .. حاول أن يتكلم فتلقى ركلة .. حاول أن يتكلم فهوى أحدهم على مؤخرة عنقه ..

اقتادوه إلى الغرفة الداخلية ، وبينما هم يمشون أطل المساجين من زنزانتهم يطلبون منه أن يتماسك . لا نعرف ما فعلت أيها الشيطان التعس لكن يجب أن تتماسك فاللحظات التالية صعبة .

هناك أجلسوه إلى المقعد إياه وقيدوه ..

الجدران رطبة متسخة وثمة فأر يركض ليتوارى . الرائحة تدل على طفح فى دورة المياه المجاورة .

من مكان ما ظهر دوسكانيش .. يمكنك أن ترى أن رأسه ما زال مضمدًا . وكان لا يكف عن ابتلاع أقراص الإسبرين بسبب الصداع .

كرشه يتراقص فى النور الخافت ويدخن .. يدخن فى استمتاع ليبدو وغدًا .

كان يمشى فى تؤدة وقد بدا عليه أنه لن يجهز على الطبيب بسرعة . سوف يتلذذ بكل لحظة يقتله فيها . مد يده إلى السلك ليتدنى المصباح قريبًا من وجه الطبيب المرهق المذعور .

قال له :

- « مرحبًا بك فى جهنم يا دكتور .. سوف نمرح جدًا لكن فى البداية يجب أن أوجه لك سؤالًا »

ثم مد يده الغليظة ليرفع ذقنه لتتلاقى العينان ، واتسعت عيناه المخيفتان وتراقص شاربه وقال :

- « من ابن الـ .... الذى ضربنى من الخلف ؟ »

لم يرد الطبيب فوجه له دوسكانيش صفعة ..

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

بدا واضحًا أن الطبيب لن يتكلم ، والضرب لن يتوقف .. لقد انهال السؤال ألف مرة ..

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

- « من الذى ضربنى من الخلف ؟ »

وفى كل مرة المزيد من الضرب .. المزيد من الركلات .. دلو ماء انسكب فوق رأس الطبيب ..

فى النهاية وقد نفد صبره أشار لى دوسكانيش كى أتصرف :

ـ « هلم »

هكذا هرعت أحضر البطارية والأسلاك، وقمت بتوصيل الأقطاب بجسد الطبيب وحركت المؤشر .. اندلع الصراخ مع صوت الكهرباء ... دززززز ... أى ى ى !

فى النهاية تركه يسترخى قليلًا ثم واصل التعذيب .. لابد أننا كررنا هذا السيناريو حتى السابعة صباحًا . هذا قاسٍ جدًا .. أنا إنسان ومن حقى بعض الراحة .

دوسكانيش المسكين كذلك بدا مرهقًا واحمرت عيناه من فرط السهر . فى النهاية أطلق سبة وطلب أن تحضر الإفطار .. سوف نستريح قليلًا . قال للطبيب :

ـ « أنت لن تخرج من هنا حيًا .. عليك أن تتلو صلاتك »

ثم تذكر فقال فى اشمئزاز :

ـ « هو ليس مسيحيًا أصلًا . إنه ينتمى لديانة سيمون كيمبانجو »

★★★

ونحن نتناول الطعام قال لنا دوسكانيش وهو يتحسس ضمادة رأسه إن الطبيب من أسرة مشاغبة أخلت بالأمن طيلة حياتها . أبوه كان شيوعيًا وقد حارب موبوتو ، لكن الشرطة قبضت عليه واختفى فى المعتقل .. لابد أنه مات وأطعموا جثته للتماسيح .

ـ « إن القذارة تنتقل عبر الأجيال .. »

ـ « كلهم جديرون بالحرق »

قال دوسكانيش إنه لا يفهم سبب الاعتداء عليه بشكل مباشر ، لكن كيف يمكن فهم هؤلاء القوم ؟ إنهم مجانين .. موبرتو قد فهمهم جيدًا . كان قومه من الكيجانى يأكلون لحوم أعدائهم ، وهو يعتقد أن هذا كان سلوكًا قويمًا .

استمر التعذيب للطبيب فترة طويلة ، لكن أناتول كان صلبًا .. كان يجمع بين الصلابة وفقدان الوعى ، وفى الحالين كنا نعجز عن انتزاع كلمات منه .. لابد أن لحظات فقدان الوعى كانت تمنحه إجازة محببة .

عندما فتح عينيه بعد قليل ، دنا منه وجه دوسكانيش المخيف .. ونفث دخان التبغ فى وجهه ثم قال :

ـ « أعرف طريقة لا تفشل فى جعله يتكلم .. »

ثم دفن لفافة التبغ فى معصم الطبيب وقال :

ـ « سيرين !.. الفتاة ! »

ثم صاح فى رفاقه :

ـ « هلم !.. إنها فى مدرسة الأطفال الآن !.. سنجلبها هنا ! سوف نستجوبها »

هذه طريقة لا تخيب . كانوا يقولون : فتش عن المرأة .. بمعنى أنها مسئولة عن أى خلاف أو سوء فهم ، لكن رجال الشرطة هنا يفتشون عن المرأة ؛ لأنها أداة ضغط لا تخيب .

هب الطبيب يحاول التحرر من قيوده ، وصرخ فى هستيريا :

ـ « لا شأن لها بهذا يا دوسكانيش !... أنا من تريده ! »

لكن دوسكانيش فظ غبى .. لقد وجه للفتى المقيد لكمة قوية جعلته يغيب عن الوعى فورًا . ربما لو لم يفعل لتكلم الطبيب .. لكن من قال إن القوة الغاشمة تتمتع بأى ذكاء ؟

أنا زميل دوسكانيش فى العمل ، لكن أعتقد أنه أكثر اندفاعًا وقسوة منى بمراحل . إنه يتصرف كالثيران .

هكذا سقط رأس الطبيب على صدره ، بينما اندفع الجنود السود الغلاظ نحو السيارة وهم يضحكون . وسرعان ما تعالى هدير السيارة وهى تشق طريقها فى شوارع كينشاسا .

لم أعرف ما حدث بعد هذا لأن أحد الضباط استدعانى . أعتقد أنهم جلبوا الفتاة فعلًا . لابد أن التعذيب أنهك قواها فكادت تهلك .. هكذا حملوها فى السيارة وألقوا بها فى شارعها أمام جيرانها .

بعد هذا يا سيدى ...

حسن .. ما أعرفه هو أن اهتمام دوسكانيش قل بالطبيب أناتول ، فلم يعد التعذيب بذات الانتظام والقسوة ، لكن الطبيب كان قد انهار تمامًا .. لم يعد يأكل أو يشرب ..

مرت أيام .. ثم أبلغت دوسكانيش أن الطبيب أناتول على وشك الموت .

طلب منى أن نذهب للزنزانة لنراه .. كان الطبيب هناك يرقد وسط مياه المجارى والفئران ، رقد تورمت عينه .. وكانت شفته السفلى مشقوقة وآثار الحرق تملأ جسده .. الفئران تتواثب من حوله ..

رأينا أن عينيه شبه مفتوحتين ، لكنهما بيضاوان تمامًا .. لابد أنه لا يقدر على غلقهما . إنه قد تحول إلى خرقة بالفعل . ركله دوسكانيش ولم يتحرك تقريبًا ، قال دوسكانيش فى اشمئزاز :

– « ألقوه فى الشارع .. لم أعد أريد شيئًا منه .. لقد انتقمت بما يكفى »

هكذا حملنا الطبيب إلى السيارة وتركناه قرب السوق .. حيث التف حوله الأطفال مندهشين . بدأ يتحرك وأدركت أنه قادر على الوقوف والمشى .. من ثم ابتعدنا .. عرفت فيما بعد أنه ذهب على الفور ليبت فتاته ، ولم يتصور أننا جرؤنا على ضربها ..

هذا هو ما أعرفه عن القصة يا سيدى .. لا توجد عندى تفاصيل أخرى ....

شهادة د. علاء عبد العظيم
(طبيب فى وحدة سافارى 7)

د. أناتول كان يحمل لى الكثير من الحب والتقدير ، ولهذا تصرفت بهذه الشجاعة المزعومة عندما راح يطلق الرصاص المجنون على زملاء الوحدة .. الأمر يشبه الأم التى ترى ابنها يقتل الناس فتدنو منه طالبة أن يتوقف ، لأنها لا تتصور أن يؤذيها ابنها ..

علاقتنا كانت قوية ، وقد قال لى مرارًا إنه يحب مصر والمصريين ، خاصة عندما عرف فى مراهقته موقف عبد الناصر من لومومبا ، وكيف أرسلت مصر قوات حفظ للسلام من أجل وطنه ..

لكن العلاقة لم تكن سياسية فقط بالطبع ، بل كانت علاقة شخصية ، وقد قمت بزيارته فى بيته الصغير الفقير عدة مرات ، وأعتقد أن الجيران عرفونى جيدًا .

قصة اعتدائه على رجل الشرطة القوى دوسكاتيش معروفة للجميع ، وأعتقد أنها قتلت بحثًا .. كما أن سبب قتله له واضح تمامًا ولا يحتاج لتفسير ...

كان لی أن أری مشهد الاعتداء ، بل وأن أكون طرفًا فيه .. هذا اعتراف صغير ظللت أختزنه فی صدری .

ما فهمته هو أن دوسكانيش كان معجبًا بالمعلمة الرقيقة سيرين . أنا قد نشأت كمصری علی أن اللون الأبيض هو الجمال بعينه ، ولا سيما لو كانت العينان خضراوين . ثم توغلت فی أفريقيا وتعلمت النكهة الخاصة للجمال الأسود .. السمراء ذات العينين الساحرتين والعنق الطويل والرشاقة . لقد صار مملًا أن أشبهها كل مرة بالغزال الوجل فی الدغل .. كانت لی قصة مع غزال مماثل فی الناتال ، وكان اسمه أونوابا ..

ليس هذا موضوع حديثنا علی كل حال . ما أردت قوله هو أن سيرين كانت نموذجًا مذهلًا للجمال الأسود الرقيق . كانت غزالًا ..

أما دوسكاتيش فكان بشفتيه الغليظتين وكرشه ونظراته الوقحة يذكرك بالضباع . الضباع تحب لحم الغزلان طبعًا .

كان يحوم حولها بلا توقف ، ولكم من مرة استوقفها وهی ذاهبة للمدرسة أو عائدة منها . يسألها أسئلة سخيفة أو يتحرش بها أو يهددها ..

يمكنك أن تراه ببذلته الرسمية يمشى والمسدس الغليظ يتدلى على ردفه ، مع تلك النظرة الأمنية الخطيرة على وجهه ، شأن شيوخ الخفر فى الريف عندنا .. طاووس قبيح يتبختر ...

بشكل ما تذكرت هذه العلاقة عندما رأيت خالد صالح الرائع فى دور (حاتم) فى (هى فوضى) ، وقد كان دوسكانيش يشبه (حاتم) فعلًا من دون كاريزما الفنان الرائعة ..

بالطبع أدرك - بحاسته الضبعية - أن المدرسة الشابة مولعة بالطبيب الرقيق أناتول ، وبدا واضحًا أنه يتوق إلى تدميره فى أقرب فرصة .. سوف يلفق له تهمة ما ..

قلت لأناتول :

- « كن حذرًا .. انتقام هؤلاء يكون قذرًا على الأرجح »

قال أناتول فى تحدٍّ :

- « دعه يجرب ما يستطيع .. إننى أعالج معظم ضباط كينشاسا .. كلهم أصدقائى .. لن يجسر على أن يؤذينى »

قلت لنفسى إنه يعرف ما يقول على الأرجح ..

لكن الأمور توترت فى ذلك اليوم الذى كنت متجهًا فيه لداره ، لأمضى معه ساعة كما أفعل كثيرًا منذ وصلت لكينشاسا .. إنه يعرفنى

بالكثير عن بلده وتاريخه . صحيح أنه يتحدث من جانب واحد هو الجانب اليسارى ، ويصبغ كل شىء بلون السياسة .. لكن هذا يعود لنشأته وسيرة أبيه القديمة .

كان الوقت يدنو من الليل وأنا أمر فى حارة ضيقة قذرة قرب الدار ، فرأيت مشهدًا غريبًا .. للحظة خيل لى أن هذه لقطة من فيلم سينمائى ..

كانت سيرين هناك وكانت تصرخ ، بينما دوسكانيش يمسك بذراعها بغلظة ويكلمها بالسواحلية ..

طبعًا لا داعى للترجمة .. يقول لها : أنت لى .. أو : لا يمكنك الفرار .. إلخ .... وهى ترفض وتصرخ .

من مكان ما - كما يحدث فى الأفلام الهندية - برز د . أناتول الذى فقد كل تحكم له فى أعصابه . انقض كالصقر على دوسكانيش وغرس مخالبه فى وجهه فتخلى عن الفتاة ..

بدا الأمر مثيرًا للشفقة . كأنه طفل يحاول أن يؤذى وحيد القرن ... سرعان ما استطاع دوسكانيش أن ينتزعه من على وجهه ووجه له لكمة ألقت به أرضًا .

قال شيئًا بالسواحلية . يسهل فهم ما قال : « لقد تحملتك كثيرًا أيها الطفل » أو « ستعرف أن العبث مع دوسكانيش خطر » ...

صرخت سيرين من جديد وانطلقت هاربة نحو طرف الحارة الآخر - وهو تصرف جبان فى رأيى - بينما راح دوسكانيش يوجه الركلات لخصر الطبيب الساقط فى الأرض الموحلة المتسخة ..

الرؤية تزداد صعوبة . لكنى استطعت بسهولة أن أرى ذلك الحجر على الأرض .. حجر ثقيل مدبب لو رفعته لاكتسب طاقة وضع ممتازة .. طاقة الوضع تتحول لطاقة حركة بسهولة ... المجد للضعفاء الذين يفهمون قوانين الميكانيكا .

التقطت الحجر ولم أتردد . لو ترددت لفتك به ...

فليذهب الحذر إلى الجحيم . من يدرى ؟ لربما استطاع سفيرنا المصرى فى الكونغو أن يحررنى من السجن بعد عشرة أعوام ..

انطلقت بسرعة ورفعت كلتا يدىَّ وهويت بالحجر على مؤخرة رأس دوسكانيش .. ولم أنتظر لأعرف التأثير .. رفعته وهويت من جديد .. سقط أرضًا جوار الطبيب بلا كلمة واحدة .. هرعت أجثو جواره لأتأكد من أننى لم أرتكب جريمة قتل ، فانتفض فى غيبوبته وهوى بقبضته الثقيلة على فمى فكسر سنتين .. ثم عاد لغيبوبته .. لم يقصد أن يضربنى لكن التعامل معه يشبه التعامل مع خرتيت مخدر .

★ ★ ★

على .. بومايبه !.. على بومايبه !!

(اسحقه يا على !.. اسحقه !)

★★★

قال أناتول وهو ينهض لاهثًا :

ـ « ما كان لك أن تتورط فى هذا »

ـ « يا سلام !.. كان علىّ أن أقف وأراقبك وأنت تموت ثم أدعو لك وأنصرف . على كل حال هو لا يعرف من هاجمه »

كان يتكلم وهو يتلمس أزرار سترة دوسكانيش فاقد الوعى .. ويفتحها بصبر .. ثم يفك حزامه ..

قلت له فى دهشة :

ـ « ماذا تفعل ؟ »

ـ « أجلله بالعار ! »

وفى عزم وثقة راح ينزع الثياب عن رجل الشرطة حتى صار عاريًا تمامًا .. كان هذا مجهودًا شاقًا خاصة مع ثقل وزن الرجل وقذارته .. واضح أن الوغد لا يستحم أبدًا ، ثم راح الطبيب بحرص يقيد رجليه معًا ، ويقيد يديه خلف ظهره . ثم إنه حمل المسدس وألقاه فى الوحل على بعد أمتار ..

ما زلت لا أفهم ..

قال أناتول :

ـ « سأتركه هنا ... وعندما يفيق لن يجد مفرًا من التواثب كالضفدع عاريًا تمامًا وسط المنطقة السكانية .. سيراه الأطفال ويضحكون ويقذفونه بالحجارة .. والنسوة سيسكبن عليه ماء الغسيل القذر ... سوف يصرخ طالبًا العون فيضحك الجميع .. سيبكى كالنساء من القهر .. هو يستحق هذا الانتقام »

لا أحب هذا .. لا أحبه أبدًا .. لقد انتهى أمرنا يا أناتول ..

سرعان ما رحنا نركض مبتعدين ..

عندما وصلنا لدار أناتول سمح لى بالدخول ، ثم أخرج طستًا وراح يغسل وجهه من الوحل .. وقدم لى كوب ماء لم أشربه طبعًا لأننى لا أشرب فى الكونغو سوى المياه المعدنية .. الدار قذرة جديرة برجل عزب ، وجديرة برجل لا يكسب تقريبًا ، لكنك تجد الكتب الطبية والسياسية فى كل مكان .

قلت له وأنا أرتجف :

ـ « أنت سخرت من الغول .. سيكون انتقامه مخيفًا .. لن نعيش يومين »

ـ « بالعكس .. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لاتقاء شره بعد ما ضربته أنت على مؤخرة رأسه . لقد صارت رحلة بلا رجعة »

ـ « لا أفهم »

جفف أناتول وجهه بالمنشفة وقال :

ـ « سوف يجلله العار .. سوف يذبل بسرعة ولسوف يطلب أن ينقلوه لمنطقة أخرى .. الرجال الذين فقدوا كرامتهم لا ينتقمون .. ثم إننى سأطلب حماية بعض الضباط من أصدقائى هنا .. لن يؤذينى »

كان يتكلم بثقة وسيطرة مما جعلنى أدرك أنه يخرف .. كل من يتكلمون بهذه الثقة مخطئون دائمًا .. لا أعرف كيف وضع حساباته تلك .. ما أعرفه هو أن الضبع الجريح يكون مرعبًا قاتلًا .. لم أسمع قط عن ضبع جريح يخفض رأسه وينصرف فى خجل ..

لم يعد لدىّ مزاج لإطالة السهرة فطلبت الانصراف . فقط طلبت منه بينما دوسكانيش ينزع أظفاره ألا يذكر اسمى .. فليحاول أن يصمد حتى تأتى لحظة اقتلاع العينين ..

ضحك كثيرًا وبدا راضيًا عن نفسه .. لم أعرف أنه سيختفى فجر اليوم التالى .

★ ★ ★

عدت من بيت أناتول وتعمدت المرور قرب الحارة التى عرى فيها دوسكانيش .. أدركت على الفور أن سيناريو أناتول قد تحقق .. كان هناك حشد من الناس والنساء والأطفال ، وثمة مناخ عامة من السعادة والمرح . ويبدو أن البعض كان يمازح دوسكانيش بطريقة (القافية المصرية) فيقول كلمة ثم يتبعها بوصف ساخر .. عجيب موضوع الإيماءات هذا .. أوشك أن أسمع لفظة (هأو) ...

فى منتصف الدائرة كان العملاق الأسود مقيدًا غارقًا فى الوحل ، عاريًا تمامًا يحاول أن يكمش جسده ليقلل عريه قدر الإمكان .. مشهد يثير الشفقة بالتأكيد ، لكن من الواضح أنهم جميعًا يكرهونه .. هناك شماتة واضحة فى وقفتهم ..

وفى النهاية قرر رجلان أن ينهيا عذابه .. من مكان ما ظهرت مدية ومزقوا الثياب التى استعملت كقيود .. وألقى أحدهم بملاءة عليه .. هنا الناس فقراء فلن تجد سروالاً إضافيًا عند أحدهم للأسف .. لا سروال ولا حذاء .

وسرعان ما ظهرت سيارة الشرطة .. طلبها أحدهم .

ألقوا بالوحش الجريح فيها ، وانطلقت بينما الناس يقذفونها بالحجارة ، وقد تجرءوا جدًا .. أخرج أحد الجنود قبضته مهددًا للناس وأطلق سبة بذيئة .. كيف عرفت أنها بذيئة ؟ هذا منطقى مع تعبيرات وجهه ..

عندما اختفت السيارة كنت أشعر أن السيناريو لن ينتهى بعد ..

شهادة آن ليراى
(مساعد مدير الوحدة)

تعرف يا سيدى أننى بلجيكية ، ووجودى هنا نوع من التوازن .. المدير كونغولى ومساعدته بلجيكية . الحق أننا أحدثنا كبلجيكيين الكثير من التخريب فى هذا البلد ، وعاملناه بقسوة بالغة لدرجة تسميته (الكونغو البلجيكى) . لكن لا ذنب لى فى هذا .. ليس الخطأ خطئى .

لا أنكر كذلك أن هذا يسبب الكثير من مشاعر الضغينة نحوى . لا فارق عندهم بين بلجيكى وآخر كأننى ابنة الملك ليوبولد شخصيًا . وعندما أعاقب ممرضة سوداء لأنها مهملة ، فإنهم يقولون : السبب أنها سوداء .. يوم تحدث فتنة أو تمرد فإننى من أوائل الرءوس التى ستطير .

هذا ليس موضوعنا على كل حال .

أردت قول إننى كنت أحب د. أناتول فعلاً . فهو شديد الذكاء والرقى كما أن حساسيته لا شك فيها .

أما ما حدث وتلك المأساة التى كلفتنا العديد من الرءوس ، فلا يوجد ما أقوله .. على قدر ما أعرفه فى كل حوادث الأموك -

أو إطلاق الرصاص العشوائى الجنونى - فإن القاتل لا يحمل أى ضغينة ضد من يقتلهم ، بل هو لا يعرفهم أصلًا .

لماذا جُنّ أناتول ؟

لا أعرف .. يقولون إنه وقع تحت ضغوط قاسية .. لا يمكننى الحكم على ذلك .

منذ جاء للوحدة وهو يؤدى عمله جيدًا . الكونغو بلد فى حال مزرية من الاضطرابات العرقية والسياسية لذا يفشل أى مشروع صحى واسع الأجل لأن الحروب الأهلية تدمر هذا كله .

لهذا فشلنا فى القضاء على داء النوم أو الملاريا . بل إن الحصبة هنا وباء قاتل يفتك بأعداد كبيرة ..

لهذا وجد أناتول الكثير مما يقوم به .. لاحظت أنه يعمل بنزعة استشهادية واضحة كأنه يحارب .. وأدركت أنه يحارب بالفعل من أجل وطنه .. فقد عرف العدو الحقيقى بعد البلجيكيين ...

إن أعداءه منتشرون فى كل مكان .. صغار الحجم جدًا .. تحتاج إلى مجهر حتى تراهم ..

قاتلون دائمًا .. اسمهم البكتريا والفيروسات ..

كانت هناك مشكلة خطرة حدثت ذات يوم ، وكان أناتول طرفًا فيها ..

قلت لك إنه هادئ جدًا أقرب للوداعة ، وأنا أخشى فعلًا هذا الطراز من الناس .. انفجارهم مرعب دائمًا ..

ما حدث هو أنه كان لدينا مريض بحمى .. أعتقد أنها التيفود . كان رجلًا فى الأربعين من عمره أصلع الرأس له شارب كث ، وكان شاحبًا بشدة ..

لم أرَه بالطبع لأن هذه مهمة الأطباء الأصغر .. عرفت فيما بعد أن اسمه ليونيل ميشا .. مدرس وشاعر وثائر قديم . يبدو أنه من أسرة اضطهدها موبوتو ، ولهذا كانت العلاقة قوية بين أناتول وبينه .

فى ذلك اليوم جاءت الممرضات يستغثن بالمدير ؛ لأن رجال الشرطة اقتحموا عنبر الحميات .. ماذا يريدون ؟ قالوا لى إنهم يريدون اصطحاب مريض .

هرعت إلى العنبر وسط الزحام لأرى رجلى شرطة ورجلًا ثالثًا لن أنساه أبدًا .. كان ضخمًا كالغوريلا غليظًا ، وواضح تمامًا أنه فخور بنفوذه وبدولته .. كان هذا هو دوسكانيش رجل الشرطة المهم الذى فتك به أناتول فيما بعد .. قبل نوبة الجنون التى جعلته يقتل الجميع ..

د. دوسكانيش كان هناك ويداه في خاصرته .. تطل الشراسة من عينيه ، ويمكنك أن تدرك أنه فاسد .. فاسد تمامًا قبل أن يفتح فمه .. كرشه يتدلى فوق الحزام والطبنجة تتدلى على ردفه .. لابد أنه يعيش على الرشوة ..

كان د. أناتول هناك ... وكان يقف في تحدٍ أمام سرير ليونيل ..

سألت عما هنالك فقال أناتول :

ـ « يريدون اعتقال هذا المريض ، وهو مريض عندي ولا أسمح بنقله .. كما أن حالته خطرة »

قال دوسكانيش في غلظة :

ـ « تلكم هي الأوامر .. الأوامر هي الأوامر .. هذا الرجل خطر على الأمن والنظام »

نظرت لليونيل الشاحب الغارق في العرق وهلاوس الحمى ، فلم يبدُ لي خطرًا على قطة صغيرة .. قلت في تهكم :

ـ « لا أعتقد أنه مرعب لهذا الحد .. »

قال أناتول في ثبات :

ـ « أنا لا أعرف تعليماتك يا سيدي ولا أهتم بها .. ما أعرفه هو أن هذا المريض في حالة خطرة ولن يتحرك من هنا »

ثم التفت لى :

ـ « أرجو أن تسجلى كلماته والساعة يا دكتورة .. سوف يخرج وراءه جيش من المحامين .. سوف أبلغ كل الهيئات الحقوقية »

كانت هذه طريقة مستفزة لا شك أنها ستزيد دوسكانيش عنادًا وتمسكًا برأيه .. التحدى يجعل الرجال يرتكبون أكثر الأمور جنونًا ، وكان علىّ ان أتكلم بصوت العقل .. طلبت من هؤلاء السادة المتوحشين أن يتبعونى لمكتبي، فأصر دوسكانيش على أن يقف شرطى جوار الفراش حتى لا يفر المريض .

فى مكتبى قدمت للرجلين البيرة المثلجة ، وقرأت أمر الاعتقال الموجه ضد ليونيل .. أدركت من وجه دوسكانيش أنه سيرحب جدًا برشوة ، لكن لماذا أقدم له رشوة ؟ موقفى قانونى ، ثم إن المريض لا يهمنى لدرجة أن أنفق عليه من مالى .. فقط هى مسألة مبادئ .

فى النهاية اتفقنا على وضع حراسة على العنبر إلى أن يتحسن الرجل ، وبعدها يمكن أن يأخذوه إلى السجن مباشرة ..

قلت لدكتور أناتول عندما جاء مكتبى :

ـ « هذا الدوسكانيش فاسد مغرور .. لا تحاول الصدام معه »

قال فى تهكم :

ـ « كل كينشاسا تعرف دوسكانيش .. إنه أفسد رجل شرطة فى العالم ، ولا يجب أن نحمله على محمل الجد .. هذا الطراز من الناس يجب أن يعامل بصلابة .. تجدينه يتراجع فورًا كفأر »

سألته عن الطبيب المصرى الجديد القادم من الكاميرون ، فقال إنه لطيف . لا يهوى القراءة جدًا بل هو مولع بكل ما هو يدوى ، لكنه نشط ..

طلبت منه أن يعنى به .. إنها فترة انتداب قصيرة بسبب قلة الأطباء عندنا .. سوف يعود للكاميرون فورًا ولسوف يخبرهم بأسرار أسرارنا .. يجب أن يحمل ذكرى طيبة عن تجربته هنا .

هذا هو اللقاء الوحيد الذى حضرته بين د. أناتول و دوسكانيش يا سيدى .. لا أعتقد أنه يقدم مبررًا كافيًا لأن يقتل الأول الثانى .. لا شك أن الأمور تطورت بعد هذا لكن هذا كل ما لدىَّ ..

لربما كان شخص آخر يملك الإجابة ..

شهادة كيشا ليونيل
(ممرضة فى وحدة سافارى)

أطفالى الخمسة فى البيت فى شرق كينشاسا تعنى بهم أمى العجوز ..

سأحاول أن أحكى بسرعة يا سيدى ..

أنا أعمل فى عنبر الحميات بوحدة سافارى 7 كما تعرف يا سيدى ، وأحاول أن أؤدى عملى جيدًا ..

عندما حضر الطبيب المصرى (علاء) قادمًا من الكاميرون، بدا لنا غامضًا فى البداية ، وإن كنت لا أنكر أنه وسيم وجذاب .. برغم أنه ليس شابًا فإن بعض الخصلات الشائبة فى شعره وملامح النضج تعطيه جاذبية لا بأس بها .

تعرفنا به معشر الممرضات فحدثنا عن زوجته الكندية الرقيقة التى تنتظره مع ابنته فى الكاميرون .. حدثنا عن وطنه مصر حيث أبو الهول والأهرام كما كنا نراها فى كتب المدرسة ..

هنا ظهر د . أناتول، وكان لطيفًا مع الضيف الجديد ..

مع الوقت صارا صديقين لا يفترقان .. قيل لى إن أناتول يحب المصريين لأسباب سياسية قديمة، ولهذا أمضى أيامًا جميلة مع صديق مصرى جاءنا منذ عامين ..

نحن نحب د. أناتول النشيط الرقيق الفقير ، ونعرف أنه يتعاطف معنا ، كما أنه يحب المرضى فعلًا . لكنك ترى فى عينيه حزنًا مرهفًا غريبًا .. هناك شرخ فى ذكرياته وفى رؤيته للعالم .

أخبرتنى الممرضات أنه غارق فى حب مدرسة رقيقة اسمها سيرين ، ويبدو أنه يرافقها أثناء عودتها من المدرسة معظم الأيام .. هناك فارق سن كبير بالتأكيد .. هذا يدهشنى .

ما حدث هو أن إحدى الحالات المرضية جاءت للعنبر .

كانت امرأة تدعى ميرادوم من محافظة ويلى العليا فى الشرق .. وكانت قد بدأت تعانى تدهورًا فى الوعى وفقدان القدرة على التركيز .. مع الوقت سقط رأسها على صدرها وهى تتناول الطعام ، فحملها أهلها من قريتها إلى كينشاسا .. نحن نرى هذا الموقف كثيرًا .

فحص د. أناتول المرأة وتفحص حدقتى عينيها بالكشاف .. بينما وقف د. علاء جواره وقد دس يديه فى جيبى المعطف ..

تفحص د. أناتول نتائج الأبحاث العاجلة التى تم الحصول عليها ، وكنت أنا واقفة بالطبع فسمعته يقول :

ـ « هناك أشياء مفروغ منها بالنسبة لنا .. رأس يسقط على الصدر أثناء الأكل .. خمول .. محافظتا ويلى العليا والسفلى .. هناك يبلغ معدل العدوى بمرض النوم 5% .. الصحة العالمية تقول إن الوباء يكون خطرًا إذا زاد معدل العدوى عن 3.0% ... لهذا يصير التشخيص واضحًا قبل أن نفحص السائل النخاعى الشوكى . برغم هذا لابد من سحب عينة . وفحص الدم باختبار « wb-CATT »

ظل علاء يحك لحيته شأن من لا يروقه الكلام ..

طلب د. أناتول أن يعدوا له أدوات التعقيم ليسحب عينة من المرأة ، لكن علاء ظل يرمق نتائج الأبحاث.

بعد لحظات قال بصوت مبحوح :

ـ « معذرة ... لكن لمن يأتى من خارج المشكلة نظرة تختلف عمن يأتى من داخلها بلا شك .. ألا ترى هذا ؟ كل الأدلة تشير إلى أنه مرض النوم بالنسبة لك وليس بالنسبة لى ... »

ابتسم أناتول وتساءل :

ـ « وماذا تقصد ؟ »

ـ « بعض هذه التحاليل يشير إلى أن الكبد ليس على ما يرام .. »

ـ « ما زلت لا أفهم »

ـ « أقصد أن احتمال غيبوبة كبدية وارد .. ألا ترى هذا ؟ »

ضحك أناتول وقال وهو يشمر كميه تأهبًا للعمل :

ـ « عندما تسمع الحوافر ، فإنك تفكر فى الخيول لا الحمر الوحشية .. لا تنس هذه القاعدة . عندما تكون فى بلد مرض النوم ، وتقابل امرأة غلبها النوم فإنك .... »

وهكذا دارت عجلة التشخيص ..

بعد ساعات كان الأمر واضحًا .. لا توجد تريبانوسوما فى السائل النخاعى ولا الدم ، والتحاليل المصلية سلبية ..

نظر أناتول لعلاء فى عينيه .. وقال وهو يضع يده على كتفه :

ـ « غيبوبة كبدية !... لا أعرف بحق أى ساحر أنت ، لكنك تملك قدرات التخمين مثل السحرة بالفعل .. »

قال د. علاء فى تواضع :

ـ « لأننى فكرت خارج الصندوق للحظة .. فى لحظة من حياتنا فى

مصر كنا نفكر فى أى شىء على ضوء البلهارسيا .. احتجنا لوقت طويل كى نتحرر »

ـ « لكننى لم أتحرر من عقدة مرض النوم بعد »

مع الوقت صار هذان صديقين لا يفترقان .. لقد ولد بينهما احترام عميق كما قلت .. من الجميل أن يلقى المرء صديقًا حقيقيًا يحترمه ...

هذا هو ما عندى يا سيدى .. لم يستجد شىء إلا لحظة الهجوم الجنونى إياها ..

شهادة د. علاء عبد العظيم
(طبيب فى وحدة سافارى 7)

كنت قد خرجت من تجربة قاسية حقًا فى الكاميرون مع ساحرة أفاعٍ .. شرح هذا يطول يا سيدى ، كما أنه سيجعل كلامى أقرب للهذيان ولن تصدق حرفًا منه .. المهم أنهم انتدبونى للكونغو .. وحدة سافارى 7 ، وهى من أهم وحدات سافارى فى أفريقيا كلها .

كنت ساخطًا غاضبًا ، من ناحية لأننى تقدمت فى العمر جدًا ولم أعد أتحمل هذه المغامرات ، ثانيًا لأننى سأترك زوجتى وابنتى ، وثالثًا لأن انطباعى عن الكونغو سيئ عامة .

فى النهاية أرغمت نفسى على أن أنقاد للتيار ، وودعت رفاقى وزوجتى ..

كلما سافرت لبلد آخر خطر لى أننى لن أعود أبدًا .. هذا متوقع فعلًا مع حظى العاثر الذى أوقعنى فى شتى أنواع المشاكل . لكنى تذكرت أننى ذهبت لكينيا وذهبت لجنوب أفريقيا .. وتعاملت مع مشاكل لا حصر لها . واضح أننى أتمتع بنوع فريد من الحظ الذى يبقينى حيًا برغم النحس .

فى النهاية وجدت نفسى فى كينشاسا أركب سيارة من المطار متجهًا لوحدة سافارى ..

مكان جديد . أصدقاء جدد .. مشاكل جديدة .. البعض يرى هذه مزية ، والبعض يراها عيبًا ..

شعور بالغربة قاس عنيف ، ثم يزول مع الوقت .. ثم أعتاد الموجودين.. ثم أحبهم .. ثم أبكى بحرارة لحظة الوداع وأنا أكتشف أننى لن أرى (جابرييل/ لارا / إلخ) مرة أخرى ..

صار هذا الروتين معتادًا .. بل صار مملًا .

اجتاز السائق الأسود الذى أرسلوه لى بوابة الوحدة .

وحدات سافارى تتشابه فى أفريقيا كلها . الحديقة والمبانى التى على شكل حرف L .. هناك سيارات الوحدة التى تحمل شعار الوجه الأفريقى الأسود . هناك تمثال مؤسس الوحدة يقف فى نافورة وسط الحديقة . هناك رقعة خالية تقف بها طائرة الوحدة العمودية .. هناك السلك المضلع الذى يحيط بالبناية . نفس التصميم .. نفس المهندس ..

تشعر بألفة كبيرة عندما ترى هذه السمات . الحق أن سافارى

صارت جزءًا مهمًا من حياتى وشخصيتى . خلاياى نفسها تغيرت بعد كل هذا العمر .

مثلما هو الحال فى جنوب أفريقيا ، فإن المدير آرثر برسين كونغولى أسود .. بينما نائب المدير شقراء بلجيكية من جنس المستعمرين . اسمها آن ليراى وهى بالتأكيد لا تحمل أى خلايا استعمارية . حفظت هذا النوع من التوازنات منذ زمن ..

وضعت حقيبتى فى الغرفة ، وهى غرفة مريحة حسنة التكييف لحسن الحظ . كل أجهزة التكييف فى وحدات سافارى عبر أفريقيا لا تعمل . صارت هذه قاعدة لكن الوحدة هنا استثناء ، وقد أقسمت على أننى سأرتدى ثيابى كلها وأتدثر بغطاء ثم أشعل جهاز التكييف على أقصى طاقته . هذا نوع من الانتقام من قضاء الليل بالثياب الداخلية غارقًا فى العرق تحت مروحة تعمل كجهاز طرد أرواح .

أقول إننى وضعت حقيبتى فى غرفتى ، ووضعت المنبه الصغير وصورة زوجتى وابنتى على الكومود ، ثم ذهبت لمكتب المدير .

كان من الطراز الأسود الفخم الموحى بالأناقة والثقة . وله صوت (دولبى) غليظ عميق محبب . أحب هذا الصوت جدًا . أما ليراى فكانت

جالسة على الأريكة تدخن وتراقب لقاءنا .. كانت فى الخمسين من عمرها . لها وجه يوحى بملاحة قديمة ، لكن الأيام قد جعلته قاسيًا جافًا ..

قال لى المدير :

ـ « سوف تحب العمل هنا يا دكتور علاء ... »

وقالت آن ليراى :

ـ « كيف حال د. بارتلييه ؟ لم أره منذ زمن .. »

يزداد بداتة وطعن فى قصة حبه الملتهبة لخبيرة تغذية تقتل أزواجها .. هذه هى أخباره فعلًا ، لكنى لم أجسر طبعًا على أن أقول هذا فهززت رأسى بمعنى أنه بخير ورائع .

قال المدير :

ـ « لديكم دكتور آرثر شيلبى وهو رجل عبقرى .. أعتقد أنك تشربت خبرات هؤلاء العباقرة »

لا لم أتشرب ..

لكنى قلت له إننى تشربت .. تشربت الكثير جدًا لدرجة التشبع التام . لو لمسنى أحدهم لنز العلم من جلدى ..

ـ « هذا جميل .. أنت ستكون بحاجة إلى كل هذا العلم ؛ لأننا سنجعلك فى عنبر الحميات »

لا .. ليس الحميات .. لا تختارا أى فرع يعتمد على كثرة القراءة .. لا تختارا أى فرع يعتمد على الفكر المتعقل الهادئ .. لا تتركانى مع مرضى مرهقين نائمين .. أريد حركة وغرفة جراحة ودمًا وصراخًا وممرضات يجرين ..

لكن السيف قد سبق العذل ، ولات حين مناص ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

سرعان ما وجدت نفسى فى جدول المرور والعلاج بقسم الحميات ، ونمت ليلة نابغية هى أول ليلة لى فى البلاد .

صحوت من النوم متعكر المزاج ، وذهبت للعنبر لأقابل د. أناتول . هذا هو لقائى الأول به . وقد حكى لى عن حياته كيتيم حتى صار طبيبًا وكيف كافحت أمه لتضمن له أن يتعلم . كانت تعمل خادمة وغسالة لتوفر نفقات التعلم .

كان نحيلًا شديد الحساسية ، وهو يماثلنى فى العمر او أكبر قليلًا ، وقد بدأ شعر فضى يغزو فوديه لكنه يمنحه وقارًا وجاذبية بلا شك . ثم فطنت إلى أنه يشبه لومومبا فعلًا .. لا مزاح فى هذا .. يشبه صور لومومبا التى كنا نراها على الطوابع المصرية فى الماضى .

اعتدت أن أقوم بجولة المرور معه ، وكان يعرف الكثير وقد تعلمت منه أشياء عديدة .

يعانى الكونغو من قائمة هائلة من الأوبئة ، لكن هناك الملاريا والإيدز ومرض النوم الوبيل والحمى الصفراء و - بالطبع - حمى الكونغو والقرم ، التى يمكنك أن تدرك من اسمها أنها متوطنة هنا . عرفت كذلك أنه - أناتول - شارك فى إنقاذ القتلى إبان الحرب الأهلية .. هناك عشرات الحروب الأهلية بين الهوتو والتوتسى فى هذه البقاع وهى لا تنتهى أبدًا ... يبدو أنه رأى كوارث حقيقية ومجازر لا حصر لها .

ثم إنه دعانى لزيارته فى بيته ..

ذهبت معه هناك ، ففوجئت بمدى الفقر والقذارة وانعدام الخدمات فى تلك الأحياء النائية ، وقد بدا أن بعض الشوارع لم يُرصف منذ عشرين عامًا .

ننقل أقدامنا فوق الحجارة التى ألقاها أحدهم على مياه المجارى الطافحة . صارت نوعًا من الجزر لكن المصيبة لو وقعت من فوق أحدها .

هنا أدركت لماذا يمضى معظم الوقت فى وحدة سافارى .

يتقاضى أناتول راتبًا مماثلا لما أتقاضاه لكنه يرسل قسطًا ضخمًا منه لأسرتين معوزتين فى قريته ، ومن الواضح أن هذا لا يترك لديه أى هامش للثراء . أنا لست ثريًا لكن راتب سافارى لى وبرنادت يكفينا لحياة كريمة فى الوحدة نفسها ، ولدينا مدخرات لا بأس بها .. أما أناتول فمن الواضح أنه لا يدخر مليمًا ..

كان البيت ضيقًا مكونًا من غرفتين . هناك مطبخ صغير فيه موقد وبعض الآنية ، بينما الأثاث قديم وبسيط جدًا ، والجدران مشققة تساقط ملاطها بفعل الرطوبة .. والحمام بلا جدران تحيط به .. أى أن المرحاض فى الصالة على طريقة السجون ! ومن الواضح أنه يستحم بصب الماء على نفسه بالكوز واقفًا فى طست كبير .

هناك تلفزيون صغير جدًا .. بحجم صفحة الجريدة لو طويتها لنصفين . وهناك حشد من الكتب السياسية والطبية . بعض الكتب مفتوح .. (آكيه .. سنوات الطفولة) للنيجيرى صاحب نوبل وول سوينكا . كتب للسنغالى ليوبولد سنجور . هذا أفريقى فخور بأفريقيته جدًا .

أعد لى بعض الشاى . تعلمت منذ جئت للكونغو ألا أشرب الماء إلا فى زجاجات ، وألا أشرب أى مشروب غير ساخن . لا بأس بالشاى .

كان أناتول يمثل لى لغزًا ..

هو بلا زوجة ولا ولد . ليست لديه طموحات معينة ولسوف يعيش ويموت على نفس الوتيرة فى وحدة سافارى ..

بالنسبة لى لدىّ زوجتى برنادت ، ولدىّ ابنتى التى سأراها تكبر يومًا بعد يوم ، مع احتمال لا بأس به أن أرزق بأطفال آخرين .. لدىّ طموحات علمية ودراسية ، ولدىّ وطنى مصر الذى أحلم بأن أعود له يومًا ما . مهما نجحت فى حياتك فأنت تحمل مشاعر ابن القرية الذى يتمنى أن يعود لها ناجحًا مظفرًا . لا قيمة للنجاح من دون هذه الخطوة الأخيرة ، وهى نشوة لن تتحقق لو ظللت فى الخارج للأبد .

لدىّ أمى وأهلى . لدىّ غرفتى وبيتى ...

أناتول لا يملك شيئًا من هذا ، فهو مقطوع من شجرة وهذا هو وطنه فعلًا ، وهو حاصل على الزمالة .. لا يوجد غد ؛ لأنه استنفده فعلًا . لن يصير ثريًا ؛ لأن وضعه هذا مستمر للأبد ما لم يزدد فقرًا .

فى حذر سألته عن بعض ما يدور فى ذهنى .. بالطبع لم أقل له إن حياتك مثل حياة الخنافس لا مستقبل لها ولا جدوى .. ليس لهذا الحد !!!

مد يده إلى ديوان شعر .. وفتح صفحة منه وقال :

« أيتها المرأة

مسى بيديكِ الشافيتين الناصعتين جبيني

فى الأعلى نخلاتٌ تتمايسُ هامسة فى النسمات العالية الليلية

حتى .. لا صوت لمرضعة تترنم لوليد

فليحملنا الصمتُ المتناغم، ولنصغِ إلى أغنيته

ولنسمع دمنا الداكن

ولنصغِ إلى أفريقيا(*) »

ثم تنهد وقال فى نشوة :

ـ « هذا شعر ليوبولد سنجور .. السنغالى العظيم »

وعاد يتلو الشعر :

« لنصغِ إلى أفريقيا

نبضاتِ الأرض المحجوبة بضباب قراها المختفية

* ترجمة محمد محمد السنباطى .

ثمة قمر سئِمٌ يتحدر نحو سرير البحر الساكن

ونعاس يلوى أعناق الضحكات

ورواة يغلبهم طيف النوم كطفل تحمله أمه

تتثاقل قدما الراقص ولسان الكورس

هذا وقت النجم الساهر

والليل الحالم يتراءى مكتئبًا فوق روابى الغيم

ومرتديًا جلباب حليب »

شعرت بقشعريرة . هذه كلمات ساحرة تنقلنى نقلًا إلى عوالم ليالى أفريقيا الساحرة ..

أنهى القراءة فوضع الديوان جانبًا وقال كالحالم :

ـ « هذه هى أفريقيا .. والكونغو يعنى أفريقيا .. لا أريد شيئًا ولا أطالب بشىء .. فقط أريد أن أعنى بهؤلاء البؤساء وأمنحهم علمى وعمرى ووقتى . لقد عانوا كثيرًا ويستحقون من يهتم بهم قليلًا . لعل عدم زواجى قد جعل الأمور أسهل لأننى لست مطالبًا بالكسب »

ثم اتجه إلى نافذة صغيرة ففتحها بصعوبة . ومنها جاءت ضوضاء الشارع والباعة وصخب الأطفال .

قال لى :

ـ « أعرف أننى لن أعيش طويلًا .. سوف أصطدم بالسلطات يومًا ما ، ولن أتحمل هذا الصدام ... الأمر يشبه أن تقف أمام قطار مندفع ، ستكون نهايتى مثل أبى »

قت باسمًا :

ـ « أبوك لم يُقتل »

ـ « مع موبوتو ومع اختفائه كل هذه السنين يمكنك أن تقسم إنه فى جوف تمساح ما . لقد رحل موبوتو لكن الكونغو سيظل جائزة لا تتخلى عنها الاحتكارات ولا يفارقها الفساد .. سيظل الكونغو ينزف للأبد ، ومعنى هذا أن الصدام قادم »

كان يتكلم عن أمور عامة ..

لم يخطر لـى أن الفسـاد سوف يمسـه هـو شخصيًا ويؤذى قصـة حبه .. وأن الضغوط سوف تتزاحم عليه إلى درجة الجنون .

هذا عالم قاس .. عالم لم يُخلق له الحساسون ذوو الجهاز العصبى الهش .. إنهم يحترقون بسرعة مثل المنصهر الذى كان فى بيتنا . كلما

كان السلك رقيقًا رفيعًا ذاب بسرعة مع تغيرات التيار . لابد من سلك سميك نوعًا ، لكن السلك السميك يهدد البيت كله بالاحتراق .. لابد من هؤلاء المرهفين حتى لا يحترق عالمنا ....

لكنى لم أكن على علم بالمستقبل وقتها طبعًا .. فقط أرى طبيبًا أفريقيًا ثائرًا يشبه لومومبا جدًا ...

قلت لنفسي وأنا أنظر له وهو يحدق خارج النافذة :

ـ « سوف تحدث أمور رهيبة هنا ... لكم أن تراهنوا على هذا ! » .

تمت بحمد الله

سافاري

صدر من هذه السلسلة ..

١ ـ الوباء .
٢ ـ خاطفو الأجساد .
٣ ـ الحريق .
٤ ـ رقصة الموت .
٥ ـ تجربة محرمة .
٦ ـ أشياء تحدث ليلا .
٧ ـ الآن تراه .
٨ ـ الكابوس .
٩ ـ الفصيلة .
١٠ ـ العاشر .
١١ ـ يوم ثارت الوحوش .
١٢ ـ أرض الجنون .
١٣ ـ تسي تسي !
١٤ ـ إنهم يعودون أحيانًا .
١٥ ـ الرجل الذي لم يكن .
١٦ ـ ؟؟؟
١٧ ـ دواء يقتل .
١٨ ـ عام الأفاعي .
١٩ ـ الجمجمة .
٢٠ ـ المرض الأسود .
٢١ ـ الماساي .
٢٢ ـ قشعريرة .
٢٣ ـ الانفجار .
٢٤ ـ الآن نرجوكم الصمت .
٢٥ ـ كليمنجارو .
٢٦ ـ الظاهرة .
٢٧ ـ H.I.V
٢٨ ـ توركانا .
٢٩ ـ حكاية ثقب .
٣٠ ـ قصاصات .
٣١ ـ الحادث .
٣٢ ـ لماذا جنت الأبقار ؟
٣٣ ـ زولـو .
٣٤ ـ حكايات من الناتال .
٣٥ ـ رجال من رجال .
٣٦ ـ هواء فاسد .
٣٧ ـ رجل الرمال .
٣٨ ـ الأخير .
٣٩ ـ NDE
٤٠ ـ عن الطيور نحكي .
٤١ ـ سيد الجينات .
٤٢ ـ هُـم !
٤٣ ـ إلى الشمال .
٤٤ ـ داء الأسد .
٤٥ ـ الشمس الأرجوانية .
٤٦ ـ المرض السابع .
٤٧ ـ الوحدة ٧٣١ .
٤٨ ـ إنهم يكذبون ..
٤٩ ـ الشعـار ..
٥٠ ـ قصة بوليسية .
٥١ ـ عودة ساحرة الأفاعي .

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال ..

ما وراء الطبيعة

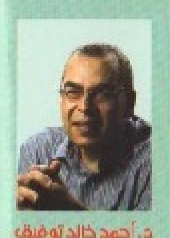
روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

صدر من هذه السلسلة ..

١ - أسطورة مصاص الدماء .
٢ - أسطورة النداهة .
٣ - أسطورة وحش البحيرة .
٤ - أسطورة آكل البشر .
٥ - أسطورة الموتى الأحياء .
٦ - أسطورة رأس ميدوسا .
٧ - أسطورة حارس الكهف .
٨ - أسطورة أرض أخرى .
٩ - أسطورة لعنة الفرعون .
١٠ - أسطورة حلقة الرعب .
١١ - أسطورة الكاهن الأخير .
١٢ - أسطورة البيت .
١٣ - أسطورة اللهب الأزرق .
١٤ - أسطورة رجل الثلوج .
١٥ - أسطورة النبات .
١٦ - أسطورة النافاراي .
١٧ - أسطورة حسناء المقبرة .
١٨ - أسطورة الغرباء .
١٩ - أسطورة بو .
٢٠ - حكايات التاروت .
٢١ - أسطورة عدو الشمس .
٢٢ - أسطورة المينوتور .
٢٣ - أسطورة رعب المستنقعات .
٢٤ - أسطورة إيجور .
٢٥ - أسطورة الجنرال العائد .
٢٦ - أسطورة المواجهة .
٢٧ - أسطورتنا .
٢٨ - أسطورة آخر الليل .
٢٩ - أسطورة الجاثوم .
٣٠ - أسطورة بعد منتصف الليل .
٣١ - أسطورتها .
٣٢ - أسطورة رفعت .
٣٣ - أسطورة أرض الغول .
٣٤ - أسطورة الشاحبين .
٣٥ - أسطورة دماء دراكيولا .
٣٦ - أسطورة الفصيلة السادسة .
٣٧ - أسطورة الدُمية .
٣٨ - أسطورة النصف الآخر .
٣٩ - أسطورة التوءمين .
٤٠ - وراء الباب المغلق .
٤١ - أسطورة فرانكنشتاين .
٤٢ - أسطورة الكلمات السبع .
٤٣ - أسطورة تختلف .
٤٤ - أسطورة رجل بكين .
٤٥ - أسطورة بيت الأفاعي .
٤٦ - أسطورة طفل آخر .
٤٧ - المنزل رقم (٥) .
٤٨ - المومياء .
٤٩ - أسطورة العشيرة .
٥٠ - في جانب النجوم .
٥١ - أسطورة الرقم المشئوم .
٥٢ - أسطورة مملة .
٥٣ - أسطورة النبوءة .
٥٤ - أسطورة العراف .
٥٥ - أسطورة (###٩٩٠) .
٥٦ - أسطورة ملك الذباب .
٥٧ - أسطورة المقبرة .
٥٨ - أسطورة أرض العظايا .
٥٩ - أسطورة رونيل السوداء .
٦٠ - أسطورة المتحف الأسود .
٦١ - أسطورة الشيء .
٦٢ - أسطورة صندوق بندورا .
٦٣ - أسطورة المحركين .
٦٤ - أسطورتهم .
٦٥ - أسطورة العلامات الدامية .
٦٦ - أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك .
٦٧ - أسطورة بيت الأشباح .
٦٨ - أسطورة أرض الظلام .
٦٩ - أسطورة نادى الغيلان .
٧٠ - الحلقات المنسية .
٧١ - أسطورة الظلال .
٧٢ - أسطورة الطوطم .
٧٣ - أسطورة شبه مخيفة .
٧٤ - أسطورة أغنية الموت .
٧٥ - أسطورة الطفيل .
٧٦ - أسطورة معرض الرعب .
٧٧ - أسطورة الفتاة الزرقاء .
٧٨ - أسطورة حامل الضياء جـ١ .
٧٩ - أسطورة حامل الضياء جـ٢ .
٨٠ - أسطورة الأساطير جـ١ .
٨١ - أسطورة الأساطير جـ٢ .
٨٢ - عدد خاص (٨) تلك المدينة .

سافارى 52

مغامرات طبيب شاب يجاهد كي يظل حيًا وكي يظل حيًا



د. أحمد خالد توفيق

أيام الكونغو

هى قصة تدور فى الكونغو ، البلد الذى قرر الغرب أنه لا يمكن أن ينعم بثرواته أبدًا .

قرر الغرب أن ثروة الكونغو هى حق مشروع للبلجيكيين .

هذه قصة تتكلم عن الجنون الذى يدفعك لقتل زملائك بوابل من نار ، وتتحدث عن لومومبا وموبوتو والأمراض النزفية .

يبدو الأمر معقدًا لكنه سيتضح مع القراءة .

الكتيب القادم

الموت الأصفر

